THE
PRISON
CELL 7
الزنزانة
نورة السعيدي
DAR PAGES

رواية الزنزانة 7

نورة السعيدي

(المُقدّمة)

كنتُ أعتقد في بداية الأمر أنّ من يمسك بالقلم ستكون الكتابة سهلة عليه... لكن باتَ الأمر صعبًا بالنسبةِ لي، فكرتُ بالتّراجع والتخلّي عن حُلمي بسبب مَخاوفي من الفشل..

هل أدَع فكرة الخوف تسيطر علي أم أنهض وأستجمِع قُواي وأُعاود التفكير بكتابة رواية جديدة.. غير التي بدأتُ بها...؟!

بدأت بداخلي حرب طاحنة وفوضى تعصِف بي.. وهواجيس تطلبُ مني التراجع خوفًا من الانتقادات الهدّامة.. فهل أستسلم أم أستمر؟؟!

كتبتُ هذه الرواية ثلاث مرات وعلى مدار سنتَين وفي كل مرّة أُغيّر من محتواها؛ لتنالَ حُسن قراءتكم ورأيكم مهم جدًّا فبِكم أستمرّ....

الروائيّة/ نورة السّعيدي.

@U80IH

خوفٌ تصحبُه بُرودة تتسلّل من أقدامها إلى قمّة رأسها، فتُصيبها قشعريرةٌ كصاعق كهربائي إيذانًا باقتراب نُطق القاضي واتّخاذ القرار بحقّ خَطفِها للأبناء... هل سيُصدّقونها بأنها ليسَت المذنبة في هذه القضيّة وأن من ارتكبَها أناسً آخرين...؟

صمتٌ قاتلٌ يخيّم على المكان، وعيون تترقب المشهد المُحزن، تَمشي غادة مثقلةً بما حُمّلت من جرائم وآثام متجهةً نحو مصيرها المحتوم والذي استعدت له منذ اللحظة الأولى لجرائمها، نظراتٌ من السّجينات تَمتلئ بالحزن والأسى على فراقها أو ربّما كانت حزنًا على تلك الحياة التي عاشتْها غادة، صوتُ الأصفادِ التي تُكبّل يديها وأقدامها يُبدّد الصمت البائس، وبرودة جدران السجن تسري في جسدها النحيل لتنعكسَ شُحوبًا في وجهها.

غادة تلك المرأة الستّينيّة تسير ببُطء مُستذكرةً أدقّ التّفاصيل في جرائمها، ولكنّها لن تنسى الجريمة الكبرى التي ارتُكبَت في حقّها وهي حرمانها من حُلم ممارسة أمومتها والتي كانت هاجسًا حوّل غادة في نظر القانون إلى مُجرمة.

عاشت غادة حياتها في أسرةٍ فقيرة، حيث يعمل والدها في بيع الخضار وتساعده زوجته في عمله ليتحمّلا معًا أعباء المصاريف التي أثقلَت كاهلهما.

كانت تحاول دائمًا أن تساعد أخواتها الخمس وتُبادلهن الودّ والعطْف وكانت أصغر هنّ عمرًا وأقلّهنّ جمالًا، يُرافقها في ذلك شعورٌ سيّئ بأنّ والدتها كانت تُدلّل أخواتها أكثر منها ربما لأنّها لم ترغَب في إنجابها، وإحساسها بأنها عِبء عليهم... أمّا والدها فقد كان الأكثر عطفًا واهتمامًا بغادة حيث يخبّئ لها الحلوى بين حينٍ وآخر ويدلّلها أكثر من باقي أخواتها ولكن للأسف هذا الدلال لم يستمر طويلًا حيث تُوفي والدها عندما بلغت الأربعة عشر عامًا وأخذ معه كما تَقول دفءَ العالم كلّه وقد أمضت حياتها في بكائها وحزنها على والدها، وترك ذكرياتهُ الحانيَة عليها.

وصلَت غادة إلى قاعة المحاكمة ونظرت إلى أولادها - وبصوتٍ مَلأه الحزن والانكِسار: لماذا أتيتم؟!!

****

لم تتذكر جميلة أثناء وقوفها مكبّلةً أمام ضابط التحقيق سوى صورةِ والدها القاسي العنيد وهو يضرب والدتها ويعنّفها ويشتمها، بينما الأم تُغمض

عينيها وتصمّ أذنَيها وكأنّها ترفض رؤية ما يدور حولها، ولم يصدَح في أذنَي جميلة آنذاك سوى آهات والدتها الحزينة وهي تتألم من آثار كدمات ذلك الزّوج العصبيّ الذي لا يُطاق، بينما تَختبئ هي وأختها الصغرى رفيف تحت لحافٍ في زاوية المنزل تَرتعِدان من الخوف المَصحوب ببرودةِ هذا المنزل المُفتقِر للدّفء والأمان.

كَبِرَت جميلة ودخلت الجامعة وهي تحملُ فكرةَ أنَّ هذهِ الحياة ليسَت للجُبناء، إذ طالما حرّضت أمّها بل وتوسّلت إليها آلاف المرّات ألّا تصمُت عن حقّها، أو على الأقل أن تترك زوجها وترحل إلى أهلها وتخبرهم بمعاناتها مع زوجها المعنِّف، ولكنّها كانت ترفض ذلك بحجّة أنّها لا تستطيع ترك بنتَيها لمصيرهما مع الوالد الظالم الذي سيُفرغ جلّ غضبِه بهما وطالما نصحت جميلة بعدم الرّد على والدها أو استِفزازِه أو الصّراخ في وجهه على الرغم من نُحول الأم وعيونها الممتلئة بالدموع التي تسيل على وجهها الشاحب مُحاولةً إخفاء ذلك عن ابنتَيها.

تَجثو جميلة ممسكةً كفّي والدتها: أنتِ ضعيفة يا أمي وتُعلمين بنتَيك الضّعف والصّمت عن حقوقهما،

لماذا المرأة تضعف أمام سَطوَة الرجل؟! لماذا لا تَجرؤ على الدّفاع عن نفسِها؟!

بيَد الأم الحانيَة تمسح على شعر ابنتها: نحن نضعف عندما نكون أمّهات، فالأبناء يكسرون الظهر، ويضعفون الأم وجبروتها، كل فتاة يا ابنتي تحتاج لحنان والديها حتى تعيش في بيئةٍ سليمة.

تنهض جميلة بغضب: وأي سلامةً فيما نراهُ؟ يا أمي الخوف لا يصنع الحرية، والضعف لا يخلق لنا الكرامة، وعندما نتَردّد ترتعِش أيدينا ولن تقوى على البِناء....

***

ينتهي ضابط التّحقيق من تَصفُّح بعض الأوراق على مكتبِه..

الضابط بنَظره للمُتّهمة يسأل: اسمك، وعمرك.. وما هو عملك وتُهمتُك؟

أنا: جميلة عادل. عمري: 23 عامًا خرّيجة من كلية الإعلام وأعمل صحفيّة، أما تُهمتي فهي تغريدة عن حقوق المرأة عبر مواقع التّواصل الاجتماعي.

يرمقُها بغضب: إلى متى سيظلّ اختراق القوانين.. ها؟! ألا تعرفين أنّ المرأَة في المملكة معزّزة مكرّمة؟!

بثقة ترد: أعرف... ولكننّي لا أكتب عن المعزّزة والمكرّمة أنا أكتب عن المُضطهدَة والمعنّفة داخل مجتمعنا، الكثيرات من النساء يُعانينَ من قسوة وسطوَة وظُلم أزواجهن، لم نُولد ضعيفات ولا نريد أن نَسترجلَ ونستَقوي على الرّجال نحن نريد الحقّ فقط كما أمرنا رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم حيثُ قال: (رفقًا بالقوارير).

- وهذا عملي كضابط، نحن نساعد كل من تتقدّم إلينا بشكوى من اضطهاد زوجها.
- يا سيّدي وهل كلّ النّساء تَستطعنَ الشكوى؟ أو هل يتجرّأن على الدّخول إلى المَخفَر؟! إنّ معظم النساء إن فكّرن في الشكوى فلا يشتكينَ إلا لصديقاتهن أو قريباتهن، وأنا كل ما أفعله أنني أقدّم لهن النّصائح وأساعدهن في حلّ مشكلاتهن الزوجية ولكنّكم تَسجنونَني.

يمدّ القلم ويأمرها: وقّعي على أقوالك

تأخذ القلم وتنظر لداخل عينَيه: سأوقّع يا سيّدي ولكن لن أصمتَ ولن أتوقّف عن تقديم النّصح والمساعدة فبداخلي بركانٌ لا يخمد.. وضجيجٌ لا يَهدأ.

بصوتٍ غاضب إلى السّجانة: خُذيها إلى الزّنزانة ريثَما تنتهي التحقيقات.

تمشي جميلة برفقة سجّانتِها متّجهة إلى الزنزانة، وقد بدأت برودة المكان تسري من أسفل قدميها لتنتشرَ في سائر جسدها، تتذكّر في هذه الأثناء والدها الذي تُوفي بجلطةٍ دماغيّة، وينتابها شعورٌ بالاستغراب من حزن والدتها الشديد عليه رغم معاناتها معه وتَعنيفِه الدائم لها، تحاول جميلة السيطرة على مشاعر الخوف أو التخلُّص من البرد الذي أرجفَ جسدها بتذكّر قرارها بأن تكون قوية الشخصيّة، مدافعةً ومناضلةً لنصرة المرأة المظلومة في المجتمع، تستذكر قرارها بالبقاء وحيدةً دون زواج كي لا تُكسَر ولا تضعف أمام رجلٍ قد يُشبِه والدها. تُحاول استِجماع قواها.

دخلت جميلة إلى الزنزانة ونظرت لبعض الفتيات فرأت نظرات الحزن تَكسو ملامحهن، البعض يعرفنَ جميلة من خلال تواصلهن معها، والبعض جديدات سيتعرّفنَ عليها.

في إحدى زوايا الزنزانة تجلس سيدةٌ ستّينية يبدو من ملامحها أنّها كانت فاتنة في صِباها ولكن اليوم يُغلّفها

حزنٌ كبير.. تجلس وهي تضمّ ركبتَيها لصدرها وتحضنها بكلتا يديها وتهتزّ بجِلستها ذهابًا وإيابًا،

اقترَبت جميلة من تلك السّيدة، ألقَت التّحيّة عليها فلم ترد....

قالت إحدى الفتيات: لا تُتعِبي نفسك فمنذ مَجيئها لم تتحدّث مع أحد وهكذا تجلس.

بشيء من الغرابة تسأل جميلة: ما قصّتها؟!

بنبرةٍ مُستفزّة تردّ أنعام: كما تقول إحدى السّجّانات إنّها تخطف أطفالًا من المُستشفى...

أصيبت جميلة بالذّهول ممّا سمعت ووضعت يدها على فمها وهي تشهق بصوت مرتفع: أطفال؟!!..

نهضَت السّيدة من مكانها كالثّور الهائج وانقضّت على أنعام وانهالت عليها بالضّرب المُبرّح والصراخ: إنهم أبنائي وأنا لست خاطفتهم أنتنّ تكذِبن!!

يتعالى الصّراخ في العنبر السّابع... محاولاتٍ إنقاذ إنعام من بين يدي السّيدة وعلى عَجلةٍ تأتي السجّانة وتفضّ الاشتِباك بينهنّ وتبدأ بتَهديدهن بالزّنزانة المُنفردَة.

أمسكت جميلة السّيدة الهائجة وبدأت بتَهدئتِها وإعطائها القليل من الماء وكأن لديها مفاتيحَ لقلوبِ

النساء فمن يراها يرتاح لملامحها البريئة، وابتسامتها الهادئة الرقيقة تبعث الأمان لمن يراها، بدأت السّيدة بشرب الماء وشكرت جميلة على رقّتها معها.

اقتربَت جميلة منها وقالت: لا تشكُريني فأنتِ بمَقام والدتي...

وكأنّ الكلمة لامسَت قلبَ تلك المرأة، ربّتَت على كتفها وقالت: ارتاحي يا أمي فلن يُؤذيكِ أحد ولو بكلمة بعد اليوم، وأنتِ لستِ خاطفة ونحن كُلّنا بناتك.

بدأت السّيدة بالارتياح وكأنها طفلٌ يلتمّس حنانَ والدته.

- أنا ابنتُك جميلة، وأنتِ ما هو اسمك؟

صَمتَت السيدة قليلًا وهي تنظر في عيني جميلة ثمّ طأطأت رأسها وقالت بتردّد: اسمي غادة... بإعجاب تردُ: اسمك جميل جدًّا.. هل أنتِ من هنا؟!

- أنا من الدّمام... كنت متزوّجة وأمًّا لخمسة أبناء

تردفُ جميلة: وأنا من الشمال انتقلنا لظروف عمل والدي.. ولست متزوجة... تخرجتُ حديثًا وأنا كاتبة وصحفيّة مدافعة عن حقوق المرأة.

قاطعتْها بسؤالها: هل جئتِ لتُدافعي... عنّي؟

جميلة مقاطعة: أنا أدافع عن جميعِ سيّدات المجتمع، احكي لي قصّتك من البداية.

تقبِض على كفّي جميلة مُبتسمَة: وهل ستُخرجينَني من سجني لأعود لأبنائي إذا سمعتِ قصّتي؟!

- ربّما أجد ثغرةً في قصّتك فأستعملَها لكي تَخرجي من هنا...

بدأت تقص عليها:

لم أعِش طفولتي الطّبيعية، فما عانيتهُ من تفرقة بيني وبين أخواتي ترك أثرًا كبيرًا في نفسي، أمّا والدي فكان مَلاذي الوحيد، لكنّه رحلَ عنا دون رجعة، مما دفع والدتي لإخراجي وأخواتي من المدرسة لعدم استطاعتها أن تصرفَ علينا من أجل التّعليم، فكلّ ما تَجنيه لا يَكفي لسدّ جُوعنا...

مرّت الأيام وبدأت أخواتي بالانحِراف مع صديقات السّوء، فكنّ يَخرجنَ مع بداية الليل ولا يعُدن حتى آخره، أو بعد بزوغ الفجر، ولكنّهن يَعُدن محمّلاتٍ بالهدايا وبعض النقود، أمّا والدتي فقد تقدّم بها العمر وأصبحت غير قادرة على العمل وغير قادرة على ضبطِ سلوك بناتها.

أنشَبَ القدرُ مَخالبَه في وجهي عندما تقدّم رجلٌ لخطبتي، وعلى الرّغم من خوفي من تلكَ الخطوة المصيريّة إلّا أنّي رأيتُ فيها نجاةً وخلاصًا ممّا أنا فيه، وشعرت أنّ هذا الرّجل وعلى الرغم من كبر سنّه سيكون لي ملاذًا آمنًا أحتمي به من ظلم الحياة، وهروبًا من عُزلتي القاتلة بين أخواتي لم أُمانع الارتِباط منه وشعرت بأنّه طوق نجاتي، لكنّي لم أتعرّف على طباعه السّيئة وقسوته إلّا بعد الزواج، لقد عانَيتُ معه من الضّرب والشّتم والإهانة ولكنّي تحمّلت كل ذلك في سبيل البقاء مع ابنَتي سحر وابني خالد الذي يكبرها بسنتين حيث كانا سرّ سعادتي ومتنفسي الوحيد وأملي الأخير في هذه الحياة...

إلا أنّ القدرَ أصرّ على غرسِ أنيابه في قلبِ غادة التي طلّقها زوجها وأخذ منها ولدَيها وحرَمها حتى من رؤيتهما دون رحمة بعد أن ضُبِطتَ أختها الكبرى بقضيّة شرف.

عانَت غادة الكثير حتى عرفت أينَ يُقيم زوجها وولداها، فكانت تذهب بالقرب من منزلهم فتَختبئ خلف الأشجار لتُراقبها أثناء ذهابهما إلى المدرسة، كم تمنّت أن تُجدّل شعرَ سحر، أو تربطَ حذاء خالد، كم تحسّرت وبكَت لعدم قدرتها على تجهيز طعام

المدرسة لطفليها، كم تألمت لعدم قدرتها على رؤية دفاتر سحر وخالد وتَزيينها، كم وكم وكم... ثمّ بعد ذلك تعود لبيع الخضار أمام المسجد لتأمين مصروفها وقوت يومها، وفي المساء تعود لمنزلها اليائس، تجلس بين جدرانه الباردة، تحتضن بعض ألعاب سحر وخالد، تحضن تلك الألعاب وتَستنشِق ما علقَ بها من رائحة ولديها، فتَجهَش بالبكاء وتغفو من شدّة التّعب.

خلال مَسيرتها هذه ومعاناتها كان عبد الله الأربعيني يُراقبها ويَرمقُها بنظرات مُحيّرة لا تُعيرها أيّ انتِباه، حتى تجرّأ واقترب منها طالبًا الزواج، لقد كان يعيش وحيدًا مثلها وهو ميسور الحال، وكانت هي لا تزال شابة، فلمعَ في عينها حُلم الأمومة من جديد وقرّرت الموافقة على طلبِه عسى أن يُكرمها الله بأطفالٍ تَرعاهم ويُشبعون لديها حلمها بأن تكون أمًّا، وبعد عدّة أشهر من الزواج طلبَت منه أن تُنجب أطفالًا يملؤون حياتهم فرحًا، وهنا كانت الصّدمة الكبرى، فقد وجدَ عبد الله نفسه مُضطرًّا للاعتراف لها بأنّه عَقيم وأنّه لا يُنجب، وأنّ هذا سبب طلاقه لزوجته الأولى، كانت الحياة تَرمي بحجارتها على رأس غادة

الواحد تلوَ الآخر، فتصرخ وتبكي وتندُب وتستَغيث وتتساءل: لماذا يا الله؟!! لماذا أنا؟!

لم تكتفِ غادة بذهابها يوميًّا لرؤية طفلَيها بل كانت تتردّد في بعض الأحيان إلى مستشفى الولادة والأطفال في الدّمام لترى المواليد الجُدد، وتراقب عن كثَب أمهاتهم المُنهكات وعيونهنّ الممتلئة بدموع الفرح عندما يحضنّ أطفالهن لأول مرّة، تتمنّى لو كانت مكانهن، لو أنها تعيش هذه اللحظات مرّةً أخرى أو يُكرمها الله باستعادة سحر وخالد لحضنِها.

***

لم تعرف خولة أنّها ستكون على موعدٍ قريبٍ من فراقِ رضيعها الجديد الذي وقعت عين غادة عليه في قسم التوليد، وقفزَ قلبُها من مَكانه لاحتِضانه بعد أن رأت الممرضة تنظّفه وتلبسه، وراقبتها، حتى رأت أمّه تُخرج ثَديها لتُرضعَه، لقد شجنَ قلبُ غادة لتلك التفاصيل، واشتاقت لهذه العلاقة بين الأم ووليدها، لم تنَم في تلك الليلة وهي تفكر بهذا الصّغير، فهاجمَها شَيطانها وانقضّ على تفكيرها وأحكم قبضتَه على عقلها، فما كان منها إلّا أن ذهبت في الصباح الباكر من اليوم التالي إلى متجرِ الملابس الطبّية واشترت مِعطفًا أبيضَ ووشاحًا تغطّي به

رأسها كالممرّضات واتّجهَت إلى المستشفى، دخلت كممرضة إلى غرفة الطّفل وبكلّ خُبثٍ ومَكرٍ طلبَت الطّفل من أمّه بحجّة أنها ستأخذه للتّطعيم، قدّمت الأمّ طفلها بكلّ سرور، وطلبت منها ألّا تتأخّر لأنها ستَشتاق إليه وهي لا تعلم أنه سيكون الوداع الأخير.

لم تستطع خولة نسيان ذلك اليوم وألمهِ وتمنّت لو أنّها لم تسافر مع زوجها، أتت معه للدّمام فهو ضابطٌ في مكافحةِ الإرهاب وعندما هاجمَ المَخاضُ زوجتَه اتّصل وطلبَ المساعدة من جيرانه لكي يوصلوا زوجته إلى المستشفى، فهو لديه مهمّة اقتِحام عاجلة ولا يستطيع العودة لمنزله، كانت خولة قلِقة لغياب زوجها وتأخُّره؛ عندما رأتها غادة كانت تجلس مُنزويَة بنفسها ونظراتها كُلها حزن لتأخر زوجها وخوفها على أبنائها داخل المنزل، وأتَت غادة لتكمل ما كان ينقُصها وتخطِف ابنها، و ما ازداد الطّين بلّة استِشهاد زوجها في تلك المُداهمَة وهو يوم اختطاف ابنها.

لقد انقلبَ حظّ هذه المرأة.. تكالبَت عليها الآلام والمَصائب والأحزان، وعند قدوم عائلتها لم يُسانِدوها كما توقّعت بل أخذوها هي وأبناءها لمنطقة الجنوب البعيدة، وكانوا يُحاولون تَصبيرها بالسؤال عن طريق الهاتف عن قضيّة ابنها... خولة

لا تهدَأ تريد السفر والبحث عن ابنها بنفسها ولكن دون جدوى، بدأت تصارع الحياة في تربية أبنائها الأيتام والتفكير بابنها المفقود.. نحَلَ جسدها وتغيّرت ملامحها، بدا الحزن يُلازمها، لم تعرف الرّاحة منذ ذلك اليوم الأسود الذي خسرت فيه ابنها وزوجها، فقط تصلي وتدعو ربها للقاء ابنها.

لم يشك أحدٌ بغادة أثناء خروجها من المستشفى فالممرّات كانت شِبه خالية بعد انتهاء جولة الأطبّاء، أخذت تحُثّ خطاها وخرجت مسرعةً من المستشفى محاولةً إخفاء ارتباكها على الحراس الذين لم يشكّوا بأمرها بسبب ارتدائها لثياب التّمريض.

صحيح أنّ غادة لم تسمع صراخ والدة الطفل عندما اكتشفت أن ابنها قد خُطِف ولكنّها شعرت به أثناء هروبها بتاكسي أجرة استقلّتها من باب المستشفى مُستذكرة أثناء الطريق لحظةَ خروج زوجها السابق مُصطحبًا معه سحر وخالد حينها كان صراخها وبكاؤها يملآن أرجاء الحي، تقطع غادة تلك الذاكرة الحزينة باحتضانها لطفلها الجديد، تُخاطب نفسها: نعم إنه ابني.

وصلت غادة إلى منزلها، وهي تَكاد لا تُصدق ما فعلت ولكن فرحتها بأنّها امتلكت طفلًا كانت لا توصف،

عاد عبد الله إلى المنزل وعندما رأى الطفل أصيبَ بارتِباكٍ وذُهول...

عبد الله: من هذا؟

تتلعثَم وهي تضمّه: إنّه طفلي.

يصرخ في وجهها: من أين لك طفل يا امرأة؟!!

تهاجمهُ بكلّ جُرأة: لقد اختَطفتُه... نعم اختَطفتُه!!

يضعُ يدهُ على رأسه بذُهول: ماذا تقولين؟!! ستدخلين السجن بفعلتك هذه... هيّا اذهبي وأعيدي الطفل لأمّه.

بدأت تَحتالُ منكسرَة، تحتضِن الطفل ... متوسّلة لزوجها: أرجوك... أرجوك، أقبّل يديك.. أقبّل قدمَيك... دعْه معي، لن يعلم أحدٌ بأمره، سنُخبر الناس أنّه ابننا، وستُصبح رجلًا كاملًا.

تَجثو على ركبتَيها تريدُ تقبيلَ قدمِه ليُوافق. فكّر عبد الله في الأمر، قد لا تأتي مثل هذه الفرصة مرّة أخرى.. أن يكون رجلا ولهُ ابن فهذا سيجعلهُ رجلًا كاملًا.. وافقَ على الفور...

بدأ يفكّر بصوتٍ عالٍ: ماذا نقول؟ كيفَ أنجبتِه؟!

- سنقول إنني أنجبتُه في المنزل... قل هكذا، لقد أسميتُهُ نواف.

لقد كانت غادة سعيدة بفعلتها تلك، لقد رُدّت لها الرّوح مجدّدًا بلعب دور الأمومة.

ذهب زوجها إلى دائرة الأحوال.. وسجّل الصّغير على اسمه؛ وهو نواف بن عبد الله، واستخرج لهُ أوراقًا رسمية تُثبتُ أبوّته...

تعودُ الظّروف القذِرة مرّةً أخرى وتصرّ على ظلمِ غادة فلم تَمضِ أكثر من سنتين حتى ضَجرَ زوجها منها ومن الطفل ولم يستطع التعايش مع فكرة الخطْف ولا مع فكرة عدم اهتمام زوجته به وانصرافها لرعاية الطفل والعناية به، ممّا دفعَه لطلاقها وتركَها لمواجهة مصيرها وحيدةً مرّة أخرى.

وجدت غادة نفسها أمام مسؤولية كبيرة في تربية نواف وأمام عبءٍ ماديّ كبير، وبما أنّ العرق دسّاس كما يُقال فقد ساءت أخلاق غادة التي أشرفَت على الأربعين وتأثّرت بأفعال أخواتها ومالت للعلاقات الليلية المحرَّمة التي استَلذّت بدخلها المادي، تقوم بعلاقاتها مُشمئزّة من نفسها، تَسلّلت الهُموم والأحزان تَحفِر في وجهها علامات الكبر، وتفاصيل جسدها الجميل بدأت بالتّرهُّل.

تَستلقي غادة بجوار طفلها وهي تفكر في كلّ شيء دفعةً واحدة، وكأنّ سَيلًا من الأفكار يجرف حياتها، صوت جرس الباب بعد صلاة الفجر يقطع عليها هذه الأفكار، تفتح الباب وإذ امرأة تبحثُ عن مُعالجِة كانت تقطن في الحيّ نفسِه الذي تعيش فيه ثم رحلت عنه، صمتٌ قليل، فكّرت غادة ثم قالت للمرأة: تفضّلي لقد وصلتِ.

انتَحلَت غادة شخصية المعالجة وادّعت أنّها هي، وعالجَت تلك المرأة بالمسْح على بطنِها بزيت الزيتون، وأثناء العلاج كانت تلك المرأة تشكو لغادة من مُعاناتها مع زوجها وإهماله لها وخوفها الدائم من أن يتركها، وهنا فكّرت غادة ولمعَت في رأسها فكرة لكسب المزيد من المال فاقترحَت على المرأة أن تعطيها بعض الحُجب لتضعَها تحت وسادة الزوج وأقنعَت هذه المرأة أن زوجها سوف يحبّها أكثر ولن يفكر في تركها، وافقت المرأة على الفور وذهبت غادة وكتبت على ورقة بعض الآيات ولفّتها بشكل حجاب وأعطتْه للمرأة، وطلبَت منها أن تراجعها بعد شهر لتُعطيها حجابًا آخر، فأعطتْها مَبلغًا كبيرًا مقابل ذلك، الأمر الذي أثار طمَع غادة وجعلها تقرّر أن تَسلكَ هذا الطريق لكسبِ المال، فرحتْ غادة

بالمبلغ وضحكت على حال تلك المرأة المسكينة التي ظنّت أن سعادتها بيد غادة المفتقدة للسعادة أصلًا.

بدأ الجيران يتَضايقون من تصرّفات غادة وكثرة الزوّار بالليل والنهار، فتَقوقعَت على نفسها والتزمَت بيتها ولم يعُد أحد من الجيران يزورها أو يسأل عنها، وزاد وحدتها خبرُ وفاة والدتها الذي أشعرها بالمعنى الحقيقي للفقد والخِذلان والأسى، فمن كانت تدعو لها بالهداية قد توفّيت.

تُطلُّ السّجّانة برأسها وهي تنهر هن: لقد تأخّر الوقت ويجب أن تَخلدنَ جميعكنّ للنّوم.

***

على شاطئ مدينة جدّة عروس البحر الأحمر يقع منزل محمد الرجل الثلاثيني وزوجته كريمة مع ابنتيهما، يعمل محمد تاجرًا للعقارات في مكتب وسط المدينة، وهو يجهّز برفقة زوجتِه الحامل بشهرها الثامن غرفة ابنهما الذي سيأتي قريبًا ويُزيّنانها بألوان وزخارف تُناسِبه، يملآن خزانتَه بالألبِسة الفاخرة ويحمَدان الله على نعمتِه بمنحهما مولودًا ذكرًا يكون عونًا وسندًا لأختيه.

وعلى الشاطئ نفسه وفي المدينة الوادِعة نفسها تَستقبل ميرفت التي تعمل ممرّضة في مستشفى الولادة والأطفال ابنة عمّها وجنات القادمة من مصر تَحتضنها وتبكيان فرحًا باللقاء بعد انقطاعٍ دام لأعوام.

ميرفت بشوق لها: كيف حالك؟ وكيف حال أهلنا في الصّعيد؟

تقبِض على يدها وجنات: الجميعُ بخير ولكنني قرّرت المَجيء إلى هنا بسبب ظلمٍ تعرّضت له هناك... سئمت حياتي بعد وفاة والدي.

لقد عانت وجنات كالكثيرات في المجتمع العربي أو الشرقي من ظلم كبير ولكنّها ظَلَمَت وظُلِمَت، فبعد وفاة والدها بدأت فكهات زوجة والدها بإهانتِها وضربها والضّغط عليها للعمل ليلًا ونهارًا في المنزل وخدمة إخوتها وأخواتها من غسيلٍ وتنظيف وطبخٍ، وأخذَت فكهات تؤلّف القصص والأكاذيب عن وجنات وتشكوها لإخوتها حتى يقوموا بضربها، مما جعلها تهرب، اتّجهت إلى الباصات التي تُقِلّ الركّاب إلى القاهرة واستأجرَت فندقًا، لحين حجز تذكرة تتّجه بها إلى جدّة، وها هي قد وصلتُ لوجهتها...

وجنات: هل ستُساعدينني في الحصول على عمل معك في المستشفى كما وَعدتني على الهاتف؟

ميرفت: طبعًا بكلّ تأكيد.

- وماذا سأعمل هناك؟

ميرفت (ممازحةً): سوف تعملين طَبيبَة... وتضحكان...

في صباح اليوم التالي ارتدت ميرفت عباءتها السّوداء الطّويلة وأعطَت وجنات عباءةً أخرى، فرمقتْها وجنات بنظرات الاستغراب...

ميرفت تهزّ رأسها: لا تنسَي أنتِ في السّعودية الآن... وهكذا يخرجون...

تَنطلِقان إلى المستشفى وبعد وصولهما دخلت ميرفت إلى غرفة المدير وأخبرته بوصول قريبتها من مصر فطلب المدير مُقابلتها وحدها وما هي إلّا دقائق وخرجت تحمل ورقة الموافقة على الوظيفة كعاملة نظافة في المستشفى وبعد هذا اللقاء القصير مع المدير بدأت ميرفت بتعريف وجنات على أقسام ومداخل ومخارج المستشفى، وعلى الرغم من انزِعاج وجنات من طبيعة العمل إلّا أنّ ميرفت خفّفَت عنها

ذلك بقولها: أن تعملي هنا كعاملة نظافة بمعاشٍ جيّد أفضل لك من أن تخدمي زوجة أب مجانًا.

وبعد يومٍ طويلٍ متعبٍ وشاق في العمل ذهبَتا إلى شاطئ البحر لتناول الطعام ومن ثمّ تمشّتا في شوارع مدينة جدّة الجميلة.

على الرّغم من ملامح الفرح التي بدَت على وجهِ وجنات بهذا التغيّر في حياتها إلّا أنّه لم يخفَ على ميرفت الحزن الذي تُخفيه وجنات في عيونها، ولم تعجز عن الشّعور بالهموم التي تحملها في قلبها إلّا أنّها التزمت الصمت ريثما يستقرّ وضع وجنات.

تأقلمَت وجنات سريعًا مع وضعها الجديد واستلمت مهامها في المستشفى وكانت نشيطة في عملها تنظّف وتمسَح وتُساعد الممرضات أحيانًا في حمل الأطفال وهذا أكثر ما كان يعذّبها حيث إنّ شعورها بالأمومة يَتفاقَم وتزداد رغبةً بذلك ولكنّها تدرك تمامًا أنّها لن تصبح أمًّا طيلة حياتها، وبقيت شهرًا كاملًا على هذه الحال، مع ازدياد الوَساوس في داخلها كلّما رأت أمًّا تصرخ وتتألّم ثمّ بعد دقائق تبكي وتضحك فرحةً بقدوم طفلها ما يثير فضول وجنات أكثر وأكثر وتتساءل ما هذا الشعور.

وفي الساعة التاسعة من إحدى الليالي رأت وجنات رجلًا في ممرّ قسم التّوليد يُمشّطه جيئةً وذهابًا بقلقٍ شديد ثمّ اقترب منها وطلب أن تدخل غرفة التّوليد للاطمِئنان على زوجتِه المُتعبة، وافقت وجنات فورًا ودخلت الغرفة ورأت تلك المرأة تتعذّب وتصرُخ حتّى أنجبت طفلًا جميلًا، اقتربَت منها وسألتها: ما اسمك؟

ردّت المرأة بصوت خافت متُألم: كريمة.

أخذَت مِنديلًا تمسَح العرق عن وجهِ المرأة: زوجك في الخارج وهر قلقٌ جدًّا عليك سأخرج لأطمئنَه ومُبارك على المولود الجديد.... حمدًا لله على السّلامة.

تهزّ رأسها: شكرًا.

نظرَت كريمة إلى وجهِ ابنِها الجميل وكادَ قلبها أن يخرج من مكانه لشدّة جماله، الطّفل الذي تعلّقت به وجنات ثمّ خرجت لتبشّر الرجل.

- أريدُ منك البِشارة يا سيدي..

محمد: خُذي ما تريدين فقط طَمئِنيني...

وبالفعل لقد طمأنَت الرجل على زوجتِه وطفلِه وأعطاها بقشيشًا كبيرًا على هذه البُشرى الجميلة.

عادت وجنات تلك الليلة إلى منزلها وهي تكادُ تَطير من الفرَح وأخبرَت ميرفت بما حدث، وكيف أن الرجل قدّم لها المال، فأرشدتْها إلى خزنتِها وطلبَت منها أن تحتفظ بأي نقود في تلك الخزنة ريثما تحتاجها.

لم تنَم وجنات تلكَ الليلة لفرحها ليس بالنّقود بل بذلك الطّفل الذي ارتسمَت ملامحُه في مُخيّلتها وكيف لو أنهُ طفلها الذي تمنّتهُ، وبدأت تفكر كيف ستحصل عليه، وفي اليوم التالي انطلقَت وجنات إلى عملها بالمستشفى كالعادة ولكنّها لا تبتعِد عن الغرفة التي تجلس فيها كريمة وطفلها، تُراقِب عن كثَب كيف تُرضِع الأم طفلها وكيف تُبدّل المُمرّضات ملابسَه، أما قلبها فلا يهدأ وتتسارع نبضاتهُ، كلّما وقعت عينها على الطفل، حتى جاءت اللحظة المناسبة وأخذَ الموظّفون استراحةً لشُرب الشاي والقهوة، تَسلّلت على أطراف أصابعها بخِفّة الأرنب، فتحَت باب الغرفة بهدوء، فوجدت السّيدة كريمة تغطّ في نومٍ عميق، حملَت الطفل ولفّتهُ ببطانيّته الصّغيرة ودون أن يشعر أحد وضعتْه داخل الشّراشف وغطّته وجعلت له مُتنفّسًا صغيرًا وبسرعة البرْق ذهبت وأخذت ما يخصّها من غرفةِ الممرّضات

وودّعتهنّ لانتِهاء دوامها الليلي، كان هناك كيس كبير تضع فيه ميرفت الشاي والقهوة، أفرغتْه وجنات ووضعَت الطّفل وهي تغطّيه بالبطانيّة، تسلّلت كالذّئب وهي تتلفت يمينًا وشمالًا تنظر في عيون المارّة وكأنّهم يعلمون بفعلتها والعرق يتصبّب من جسدها المُتهالك بثقل الهموم والان هي تضيف لهُ همًّا آخر.

تَجمهرَ الأطبّاء والممرّضات حول كريمة التي ملأ صراخها المستشفى بعد أن استيقظت ولم تجد ابنها، كانت تبكي كالمجنونة وتسأل الجميع: أين ابني؟ من أخذه؟ لقد كان نائمًا بجانبي... آاااه يا ولدي أين أنت يا عمر؟!!

حاولت النّهوض والمشي بمساعدة الممرضات مستندةً إلى الجدار وهي لا تستطيع السكوت عن نداء عمر والاستغاثة بالجميع... وتردّد: أرجوكم إن كان كابوسًا فأيقظوني... آااه يا عمر!!

الكل يُحاول تهدئتها والجميع يتخبّطون ويبحثون في أرجاء المستشفى، فوضى عارمة ملأت المكان لكن دون جدوى، وبقيت على هذه الحال حتى سقطَت من الوهن والتعَب، فأعطوها حقنةً مهدّئة لكي تنام وترتاح ريثما يصِل زوجها.

بدأت ميرفت بالبحث عن وجنات التي ذهبت دون أن تُخبرها أو تودّعها مما أثار حيرتها واستغرابها، سألت عنها فأجابتها إحدى الممرضات: لقد انتهى دوامها وذهبت من ساعة، ازداد قلق ميرفت فقرّرت الذهاب إلى المنزل.

وصل محمد والد عمر وأخبره مدير المستشفى أنّ ابنه قد خُطِف وأنّ التحقيقات قد بدأت.

محمد يصرخ في وجه المدير: خُطِف؟!! وكيف يُخطَف؟ أين الجميع؟ يكاد أن ينهار.. يتابع: أخبِروني كيف يُخطَف طفلٌ من حضنِ أمه؟ من يستطيع فعل هذا؟!

تُمسك بيد زوجها وهي مُنهارة...

يَضمّها محمد: اهدئي أعدك بأن أجدَه ولو كان آخر يوم في عمري.

وصلت وجنات إلى المنزل وملأ صراخ الطّفل أرجاء المكان، وكأنّهُ أحسّ بفراق أُمّه، وافتقد الأمان وعلى عجلٍ ذهبَت الخزنة ميرفت كالمجنونة ففتحتْها وأخذت كل النقود وجمعت ما تستطيع من ملابسها وهربت دون أن تفكّر بعواقب الأمور....

وصلت إلى موقف السّيّارات فرأت رجلًا ينادي بعلوّ صوته: الدّمام.. الشّرقية.. الشّرقية...

ذهبَت معه دون تفكير بوجهتها مُتواريةً عن الأنظار.

***

تُتابع جميلة تدوينَ ملاحظاتها: تابِعي يا أمّي.. تقول لغادة..

غادة التي تعمل صباحًا في علاج النّساء وكتابة الحُجب وتَلهو ليلًا بأنوثتِها قد اشتاقت وحنّت لزيارة المستشفى مع ازدياد رغبتها بأن تحصل على أخٍ لنواف -أول ضَحاياها- كان يوم الجمعة والزيارة مفتوحة في المستشفى منذ الصباح، دخلت كالذئب الجائع الذي ينتظر فَريستَه، تُجيلُ نظرَها بين النساء اللواتي يُعانين من آلام ما بعد المَخاض، تفكر غادة: من منهنّ التالية؟! من منهنّ سيموت قلبها بعد دقائق لفقدانها ابنها؟!

سلوى... أكرمتْها الحياةُ كثيرًا، فبعد تخرّجها من الجامعة عملت كطبيبة في أحدِ المراكز الطّبية، وتزوّجت وحلمت بمنزلٍ دافئٍ يضمّها مع زوجها وأبنائها ولكن للأسف لم تتحوّل أحلامها إلى حقيقةٍ كاملة، فقد واجهت مشكلات كثيرة أثناء حملها بابنها

الأول لظروف طلاقها فلم تحتمِل أن يطلقها زوجها وهي في الأسابيع الأولى من الحمل، كان يبحث عن وظيفةٍ دائمة ومن وجهةِ نظره فهو لا يستطيعُ تحمّل مسؤولية الأطفال في تلك الأيام.

المسكينة سلوى ومن شدّة فرحتها بحملها وسعادتها انتظرت هديةً أو باقةَ وردٍ من زوجها ولكن ما فعلهُ لا يُطاق، فذات ليلة أيقظَها من نومها في السّاعة الواحدة والنصف ليلًا بحجّة أنّه يريد الذهاب لرؤية صديقه كما ادّعى فأخبرتهُ أن يذهب لأنّها لا تخاف الجلوس وحدها، إلّا أنّه أصرّ أن يُوصلها إلى منزل أهلها، فخرجت معهُ وانتظرت عودته لعدّةِ ساعات ولم يجب على اتصالاتها، وعندما رأتها أمها قلقة قالت لها: نامي وارتاحي وسأُوقِظك إذا أتى، نامت المسكينة ولم تستيقظ إلّا بعدَ صلاة الظّهر في اليوم التّالي فتحت هاتفها لتطمئنّ عليه فوجدت رسالة منه، كتب فيها: أنتِ طالق!!!!

وضعَت هاتفها وصرخَت وبكَت بكلّ حُرقة من هول الهدّية التي وصلتها.. تَجمهرَ كلُّ من في المنزل، لم تكن قادرة على الكلام أبدًا، رفعت هاتفها وجعلتهم يقرؤون الرسالة، سقطت أمّها أرضًا وهي تصرخ: لا.. لا.. ماذا فعلتِ ليُطلّقك؟

إخوتها يهدّدون ويتوعّدون بأن يقتلوه، ووالدها اتّجه إلى منزل الزوج ليَسأله عن الأسباب، والكل يتخبّط ويثور غضبًا وحزنًا أما والدتها وفي لحظة صمتٍ صرخت قائلةً: الجنين... يجب أن نُنزل الجنين قبيلَ بَعث الرّوح فيه وإلّا فسيُصبح محرّمًا إجهاضُه.. فوالده ليس رجلًا كُفوًا، إِنَّهُ عديم المسؤوليّة، وضعت سلوى يديها على بطنها كي تحمي جنينها وهي تصرخ بوجه والدتها:.. لا.. لا.. يا أمي لن أقتل ابني سأربّيه وحدي... لن أتخلّى عنه ما حَييت!!

وحان وقت الوِلادة وبعدما تعسّرت كثيرًا أنجبَت طفلًا جميلًا واستلقت وهي تتأمّل زيارة والد الطفل لكي يَراه ولكن للأسف لم يأتِ ولم يتّصل أيضًا.. دخلَت الدورة المياه بتَثاقُل..

***

وقعَ نظرُ غادة على سيدةٍ تَنزوي وحدها تنظر في عيني طفلها الجديد وتبتسِم له ودموع الفرح تسيل على خدّها، لبسَت قناع الإنسانيّة واقتربت بخُبثِها من تلك المرأة، وطلبَت الطّفل منها لتأخذه للتّطعيم كالمرّة السابقة، لم ترفض المرأة طلب غادة، خاصّةً أنّها أبدت إعجابها بملابس الطفل وبذوق والدته سلوى في اختيار تلك الملابس، ضمّتهُ غادة بكلّ حُنوّ

إلى صدرها وخرجت أمام الزوّار وهي متيقّنة من أنها قد قضَت على والدته وأنهَت حياتها وكأنّها تسمع بكاءها وقلبها يتقطّع، فهي من تعرف معنى فقدان فِلذَة الكبِد، تلك المرأة فقدت طفلًا واحدًا أما غادة فقدت ابنها وابنتها في يوم واحد، لن تنسى غادة لحظة أن هجمَ زوجها عليها وهي تحاول حماية أبنائها ولكن دون جدوى، فقد انتزع طفلَيها من بين يديها كما قلعَ قلبها، وحرمها منهما وتيقّنت أنه لن يعيدهما إليها ولن يسمح لها برؤيتهما.

تتابع غادة سيرها خارجة من باب المستشفى محاولة الثبات أمام فكرة أنها أرحم من زوجها فهي على الأقل تخطِف الأطفال بلُطف من أحضان أمهاتهم.

وقبل وصولها إلى المنزل رأت امرأة تبدو غريبةً عن الحيّ مُرتبكة لا تعرف أين تذهب وأكثر ما لفتَ انتِباهها وأحزنها هو صراخ الطفل بين يديها وعجزها عن تَهدئتِه، اقتربت غادة منها وسألتها عن حالها وعرفت أنها تبحث عن غرفةٍ للإيجار فدعتْها للدخول معها إلى منزلها حيث إنّ غادة لديها غرفة فوق السّطح وقد تناسب هذه المرأة، وبالطبع وافقت تلك المرأة فورًا.

غادة: ما اسمك؟ وأين هو زوجك؟

وجنات (مرتبكة): سنية ... سنية يا ستّي جئت من مصر للعمل ولم أخبرهم بحملي وعند ولادتي رفضوا أن أتابع عملي فطردوني، إدارة المستشفى لا تريد امرأة مرتبطة بطفلها، أما زوجي فقد تزوّج امرأة أخرى في مصر وأنا لا أريد العودة إلى هناك فهو لا يعلم بحالي... سأبحث عن عملٍ لأسدّد لك الإيجار وأغطّي مصاريفي مع ابني... وأنتِ يا سيّدة ما هو اسمك؟ وأين هو والد أبنائك؟!

اسمي غادة وأنا منفصلة عن زوجي الثاني وهذان ولداي: الكبير نواف والمولود الجديد فهد ولدي سحر وخالد من زوجي الأوّل ويعيشان معه... تمدّ يدها: دعي الطفل معي واصعدي إلى غرفتك ورتّبيها..

تردّدت سنيّة في بداية الأمر ولكن رؤيتها لولدَيْ غادة دفعَها قليلًا إلى الطّمأنينَة، ومع ذلك بدت على غادة ملامح الرغبة بامتلاك هذا الطفل أيضًا، وكأنّ الظّروف التي مرّت بها جعلتها نَهِمةً في الأطفال.

غادة فرحةً بقدوم سنيّة وطفلها لأنّها تعيش وحيدة منعزلةً عن كل من حولها، تتمنى أن تعيش حياتها الطبيعية وتزور جاراتها ويَزُرنها أو أن تتحدّث مع أي أحد لملء فراغها والابتعاد عن عزلتها.

أمّا سنيّة فقد كانت حياديّة بعض الشيء في بداية الأمر وعندما أتمّت الشهر الأول بدأت تتقرّب أكثر من غادة وصارحتها بأنّ النّقود التي معها شارفت على النّفاد وأنّها بحاجة للبحث عن عمل يغطي إيجار الغرفة والمصاريف لها ولابنها راضي الذي كانت تتَلعثَم كلما سألتها غادة عنه، وعندها اقترحت غادة عليها أن تعمل خادمة لديها وترعى طفليها أثناء غيابها عن المنزل، وأنّها ستُعطيها مبلغًا مقبولًا كلّ شهر وتُعفيها من إيجار الغرفة.

فرحت سنية ووافقت فورا واطمأنّت على ابنها لأنّها لن تكون مُضطرّة لتركه في المنزل والذهاب للعمل، ولن تكون قادرة على اصطحابه معها.

أخبرتها غادة عن عملها بمُعالجة النساء بالأعشاب معتمدةً على ما سَمعتْه من والدتها وبعض النّسوة سابقًا أمّا الحجب فليست سوى آياتٍ قرآنية، وأخبرتها بأنّ بعض النساء اللواتي عالجتهنّ رزقهنّ الله الحمل ومنهن من لم تَستفِد من علاجها، وهكذا ذاعَ صِيتها وأصبحت معروفةً في المنطقة.

كبر الولدان نواف وفهد وراضي معهما في المنزل نفسه، كلّما سألت غادة، عن راضي وأوراقه الثّبوتية

كانت تتلعثَم وترد بأنها أنجبتْه ولم تُخبر والده وأنها في بلد غريب لا تعرف قَوانينَه.

بدأت غادة تتلقى بين كل مدّةٍ وأخرى اتصالاتٍ من ناصر سائق التاكسي الذي أقلّها يوم خطفَت الصّغير فهد وكان يهددها بأنّه سوف يُبلّغ الشرطة عنها ليبتزّها ويأخذ منها نقودًا، لقد حاولت غادة أن تخفي خوفها من ناصر وبدأت تفكّر كيف لها أن تنتقمَ منه أو أن تُوقِعه في قضيّةٍ تمنعه من ابتِزازها، فاتّصلت بناصر وطلبت منه أن يوصلها إلى مستشفى الولادة والأطفال في الخبر بحجّة زيارة أختها، مقابل أن تعطيه مبلغًا كبيرًا من المال شرط أن يأخذها ويعيدها، أخبرت سنيّة بذلك وأخذت مِعطفَ التّمريض معها وفعلًا وصلت إلى المستشفى وطلبت من ناصر أن ينتظرها حتى تعود دخلت متسلّلة كعادتها دون خوفٍ أو تردّد فقد بات الأمر سهلًا بالنسبة لها فليست المرّة الأولى، رأت طفلًا جميلًا راقبتْه من الحضانة إلى غرفة والدته وانتظرت حتى دخلت الأم إلى الحمام فتسلّلت إلى الغرفة وحملت الطفل ووضعتْه في الكيس المُجهّز لهذه العملية وتركت ورقة في سَريرِه مكتوبٌ عليها : (سنُعيده بعد عشرة أيام). وخرجت مسرعةً من الغرفة وما هي إلا

أمتار قليلة في الممر حتى بدأت تسمع صوت الأم يعلو وبدأت بالصراخ، فزادت من سرعة خطواتها حتى خرجت إلى باب المستشفى حيث ينتظرها ناصر بسيارته وقبل الانطلاق أشارت له إلى كاميرا المراقبة على باب المستشفى وقالت له: هذه المرّة أنت مُتورّط مثلي وقدمك قبل قدمي في هذه العمليّة وأنت المسؤول عنها وأنت من حرّضني لخَطف الطفل، بدأ ناصر بالشّتم والسبّ لغادة بأنها أسوأ امرأة على وجه الأرض، ثم انقلب السّحر على الساحر وبدأت غادة بابتِزاز ناصر وأخبرته أنّه من اليوم سيكون سائقها الخاص مَجانًا وسيفعل ما تطلبُه منه، ممّا دفع ناصر للصّراخ بوجه غادة ثم أوصلها إلى منزلها لتُضيفَ طفلًا جديدًا إلى قائمة مسروقاتها البشريّة.

***

وأثناء سفر جابر زوج فرح بالطائرة، جلس بجواره رجل في الثلاثين من عمره قد انحنى ظهرهُ من الهم.. ينظرُ لصورة ابنتِه ويبكي بحرقةٍ وهو يضمّها لصدره، ربّت جابر على كتفهِ يحاول أن يُطمئن الرجل: خيرًا يا أخي مالي أراك هكذا تبكي؟!

نظر لهُ بتعجّب: هل وجودي بجانبك يُزعجك لتَسألني؟

يُحاول أن يمتصّ غضبهُ: السّفر طويل وأريد أن أخفّف عنكَ همّك، احكِ لي ما أصابك لعلّك ترتاح؟

الرجل يتنهّد: كنتُ مسافرًا لعلاج ابنتي ذات السنوات الأربع وهي مريضة، وقد قرّر طبيبها إجراء عمليّة جراحيّة لقلبها، ونسبة نجاحها في الخارج أكبر بكثير من بلدي، وبعد العمليّة تدهورت حالتها الصّحيّة وماتت، وها أنا أعود وحيدًا أجرّ ذيول اليأس والحزن والخيبة، وهي مكفّنة تنتظر أن نصل وأسلّم جثمانها لوالدتها كي ندفنها، قطعَ الحزن شريان قلبي، فكيف أُخبر والدتها التي تنتظرها بفارغ الصبر، لم أستطع إخبارها بوفاتها، فهي حامل في شهرها الأخير، وبُكائي لحزني عليها إنّها فرحتنا الأولى.

جابر يُقاطعهُ: إذا سمحت لي أن أقصّ عليك قصّتي فلربّما تخفّف عنك مُصابك؟

- تفضّل يا... لم نتعارف!
- أنا رجل الأعمال جابر... لقد أنعم الله عليَّ بنعمة الأموال والزوجة الصالحة والأبناء، لم أكن أظن أن يمسّنا شقاء، إلى أن حملت زوجتي بعد انقطاع سبع سنوات منذ مَجيء ابنِنا الرّابع، كانت والدته فرح تتوقُ لوجود طفل جديد في العائلة، كما تعلم أنا تاجر كبير ولدي شركات

وثروة لا تُقدّر بثمن، وبعد مراجعة عددٍ من الأطباء عادت وحملت بابنها الخامس خوفًا من أن أتزوّج عليها كما تظُنُّ، عادت بخبرِ حملها سعيدة، لقد تاقت للأمومة من جديد، وبعد انقضاء أشهر حملها، جاءت ولادة سلمان بتَعاسَة، فقد خُطِفَ بكلٍّ سهولةٍ من أحضان والدته وبعد صراخها وبكائها وهي بهذه الحالة أتى مدير المستشفى يخبرها أنهُ غير مسؤول عن إهمال والدته، لماذا أعطتهُ لتلك المرأة المُحتالة... بحَثنا فلم نجد لها أثرًا... لا تحزن يا صديقي فهذه قصّة "أم فقدَت طفلها" وبلهفة الأم المنتظرة لهذا اليوم خطفت فرحتها منها بكلّ ألم.. تمنيتُ أن أحملهُ جثةً وأدفنهُ تحت التّراب.

***

دخلت غادة منزلها وبدأت تتظاهر بالبكاء أمام سنية وأخبرتها أن أختها توفّيت أثناء ولادتها، وتركت لها وسيم أمانةً في عنقها، وانطلَت الكذبة على سنيّة المسكينة وتعاملت مع الموضوع بشكل طبيعي، لقد كان وجود سنية في حياة غادة عاملًا مهمًّا ومساعدًا لها فقد كانت تهتمّ بالأطفال وتَرعاهم جيّدًا إلا أنها

تقسو قليلًا على ابنها راضي وتضربه بحجّة أنّها تُربّيه ليصبحَ رجلًا، وغادة هي من تُنقِذه من بين يدي سنيّة غالبًا.

عملت غادة ليلًا نهارًا لتُؤمّن حياة كريمة للأطفال الذين أصبحوا في عمرٍ يسمح لهم بالدخول إلى المدرسة، دخل نواف المدرسة لأنه يحمل أوراقًا ثبوتيّة ومسجلٌ على اسم طليق غادة الأخير (عبد الله) إلى حين كبر فهد وبدأ يسأل والدته لماذا لا يستطيع الذهاب إلى المدرسة كأخيه، وبدأت غادة تختلِق الحُجَج لفهد بأنّ والده لم يُخرج له أوراقًا ثبوتيّة، وأنّه غضب منها وطلّقها بعد عدّة مشكلات وعاقبها بنُكرانه لأبوّته، لم تكن غادة أمًّا سيّئة كما يقال عنها فبدأت تعلّم فهد كتابة وقراءة الحروف وتساعده في حفظ القرآن والصلاة يساعدها نواف في ذلك.

أمّا سحر وخالد فقد أصبَحا في عمرٍ يسمح لهما بالاعتماد على نفسهما واتّخاذ القرار، فقررا زيارة والدتها غادة دون علم والدهما وهذا ما كانت أم غادة تتَنبّأ به لها حيث أخبرتها بأنّ سحر وخالد سوف يكبران ويبحثان عنها بكل تأكيد.

لم تصدّق غادة أنّ سحر وخالد يقفان أمامها فجثَت على ركبتَيها وفتحَت ذراعيها لتركضا ويحتضنا والدتها ويبدأ البكاء والفرح والحزن، مشاعر مختلطة صاحبت الجميع فالكل يضحك ويبكي... مشهدٌ تنفطِر له الأفئدة.

اعتذر خالد لأمّه عن عدم قدرتهما على المجيء سابقًا بسبب خوفهما من والدهما العصبيّ، وأخبرها بأنّه الآن يعمل ويستطيع أن يؤمّن لها النّقود اللازمة التي تكفيها وتُغنيها عن أي عمل، أمّا سحر فقد وضعَت رأسها على صدرِ أمّها وأخبرتها أنها تخرجت من الجامعة وخطبها أخو صديقتها، مما زاد من حزن غادة وبكائها كيف تكبر ابنتها وتُخطَب وهي بعيدة عنها!

كانت سنيّة تقف وتراقب المشهد وتبكي وتضحك معهم، نظر خالد إليها ثم استدار إلى والدته...

سأل والدتهُ: من هذه السيّدة يا أمي؟

- إنّها جارتي تسكُن في غرفةٍ فوق السّطح وتأتي لتُساعدني.

بلهفَة الأخ الأكبَر: وأين إخوتي؟

غادة تُناديهم وتعرّف بعضهم ببعض ويتعجّب خالد من عدم امتلاك فهد ووسيم الأوراق ثبوتيّة أسوةً بنواف، وهي تتحجّج بأنّ زوجها طلّقها وسافر بعيدًا..

تعجّبت سنية واقتربت من غادة وسألتها: أليسَ وسيم ابن أختك؟

تلكِزها غادة بأن تصمُت حتى لا يسمعَها أحد.

***

سافر محمد وزوجته كريمة إلى الرياض بعد أن ساءت حالة كريمة وبدأ جسمها بالتّحول فهي لا تنقطِع عن التفكير بابنها المخطوف عمر واللحظات القليلة التي رأتهُ فيها، تعيش كريمة حياة تأنيب الضمير حيث تعتبر خطف عمر ناتجًا عن إهمالها، ويزداد حزنها عندما تكثر عليها الأسئلة ممن حولها: ماذا حلّ بعمر؟ ألم تجِدوه؟ كيف أضعتِيه؟ وأسئلة كثيرة كانت تنشب حرائقَ لا تنطفئ في صدر كريمة، لم تعُد الأفراح تَعني لها شيئًا ولا المناسبات والأعياد ولا اجتماعات العائلة، مالت للعزلة التامّة، كانت تنفجر بالبكاء فجأةً وتصمت فجأةً، ثم تشرع بوصف عمر وتتذكر علامات فارقة في جسده انطبعَت في ذاكرتها ولن تمُحى، ربما الموت كان أهون عليها من الانتظار وعذاب الضمير، كبرت بِنتاها وكانت كلما

رأتها تتخيّل عمر معهما وتقول: لو أنّ عمر معكما لكان كذا وكذا، لم تعش فرحًا مكتملًا فكل المناسبات عندها باتت منقوصة مُنغّصة تفتقِر إلى عمر.

غادة التي أصبحت على مشارف الستّين بات القلق يَستحوِذ على رأسها وبدأ يكبر ويتضخّم ولم تستطع التّخلّص منه، أما ناصر الذي يعمل بالسّحر والشّعوذَة بدأ بتعليم غادة هذه المهنة الجديدة، وأخبرها أن هناك أعمال فكٍّ وربط، وبدأت تأخذ تلك الأعمال لتدفنَها مع الأموات كي يصعب استخراجها، لقد دفعتها الحياة لأسوأ الظروف، ولم يكن بمقدورها العودة للوراء، كبر أطفالها وبدؤوا يضجَرون من حياتهم معها؛ يُريدون الدّراسة والعمل أسوةً بأقرانهم، ولكنهم لن يستطيعوا ذلك لعدم وجود تلك الأوراق التي تُثبت أنّهم من السّعودية.

وذات يوم سألها وسيم وهو في عمر التّسعة عشر.

اقترب منها: أمي أجيبي ولن أغضبَ من ردّكِ.

بيدٍ حانيَة: اسأل يا قلب أمك.

- هل أنا وفهد ابنان غير شرعيّين؟!

صَفعتْهُ بكل قوّتها على وجهِه: لم أنتظر يومًا أن تسألني هذا!! أنا أمّ سيّئة ولكنني لست بهذا السّوء كي

أُنجبَ أبناءً بالحرام، اذهب من أمامي لا أريد رؤيتك بعد الآن!!

وتحوّلت تلك اليد الحانية إلى قبضة شرّيرة ونبرات صاخبة... مما دفعَ وسيم لتهديد والدته وهو يمسح دموعه بغضب: سأذهب لأيّ مُحامٍ وأسأله ماذا أفعل؟!

بدأ الخوف يَتسلّل إلى قلب غادة؛ خوفها من تكرار الخسارة مرتين وفقدان أولادها الذين تعبت في تربيتهم وأفنَت شبابها وهي ترعاهم، أسرعت على الفور فاتّصلت بابنها خالد وطلبت منه أن يحضر إليها في الحال، وعند وصوله سألها: ماذا بكِ يا أمي؟ لماذا طلبتِني على عجَل؟!

أخذت ابنها خالد على انفِراد وصعدت إلى سطح المنزل، فهو مكان آمن من وجهة نظرها ولكن أين الأمان بوجود سنيّة التي اختبأت خلف الجدار تسترِق السّمع؟

اعترفَت غادة لخالد بأنّ فهد ووسيم ليسا ابنَيها وأنّها قد اختطفتْهما من المستشفى.

صعقَ خالد ممّا سمع واعترتهُ الدّهشة: ماذا فعلتِ يا أمّي ستُسجَنين بفعلتك تلكِ؟!

بدأت تُطمئنهُ: لا يا خالد؛ لن يعلم أحدٌ غيرنا، فقط ساعدني لاستخراج تلك الأوراق لهما فهما يُريدان العمل.

خالد بتعجّب: وماذا سأقول لمَنسوبي الأحوال يا أمي؟ أين أنجبِتهما؟

أخبرهم أنّهما أخواك وفقدنا أوراقهما حين احترق منزلنا.. أرجوك يا بنّي.

وعندما ذهب خالد وغادة لموظّفي الأحوال، لم تَنطَلي الكذبة عليهم بل أخذوا بكلّ هدوء عنوان منزلهما وأرقام هواتفهما ووعدوهما خيرًا فانصرَفا.

بدأ القلق يَزداد ويتضاعف لدى غادة وتغيرت معاملة سنيّة لها وبدأت تأخذ ابنها راضي من منزلها ولا تسمح لهُ بالجلوس مع نواف وفهد ووسيم، على الرغم من أنه كان الأخ الرّابع لهم والصّديق المقرّب، وغادة هي من كانت تؤمّن لهُ احتياجاته وملابسه في كل عيدٍ أو مُناسبة.

وبعد عدّة أيام خرجت سنيّة برفقة راضي إلى السوق فاستغلّت غادة غيابها ودخلت إلى غرفتها تَنبِش بين أمتعتِها وتبحث عن شيء يريح قلبها ويخفّف من قلقِها فلم تجِد سوى ملابس قديمة الراضي والشيء

اللّافت أنّهُ نُقِشَ عليها اسم "عمر" وهي ملابس باهظة الثّمن ولا تستطيع سنيّة أن تشتري ملابس كهذه، أكثرت غادة من البحث في أوراق سنيّة فوجدت جواز سفرها الذي يَحمل اسم وجنات.

في هذه اللحظات أحسّت غادة بأنها صَفعة على وجهها أو أنّ ماءً باردًا سُكب فوق جسدها... فمن تكون سنية؟! كيف استطاعت إخفاء حقيقتها كل هذه السنين؟! وبدأت غادة تفكّر في هذا اللّغز فأعادت كل شيء إلى مكانه وانتظرت حتى عادت سنيّة فسألتها:

غادة: أليسَ لديك أقارب في المملكة لتزورهم؟!

مُتلعثِمة وتُحاول التهرّب: لماذا تسألين بعد كل هذه السنين يا غادة؟ ليس عندي سوى فوزية جارتك وهي من مصر وأعتبرها أختًا لي في الغُربة.

تقترب غادة: أردت فقط أن أعرف كيف جئتِ من مصر دون مساعدة من أحد؟

بتَأفُّف: لقد أخبرتك أنني جئت كعاملة نظافة.

بدأت غادة تُضيّق الخِناق أكثر عليها وتُكثر من الأسئلة التي تُخرج فيها سنية المُرتبكة..

- أخبريني أين كنتِ تعملين كعاملة نظافة؟

- أخبرتك سابقًا أنني كنت أعمل في مستشفى الولادة والأطفال بجدّة.
- ولماذا جئتِ إلى الدّمام وتركتِ جدّة؟
- بانفِعالٍ شديد وكأنها قد كُشِفَ أمرها: لا تَخافي يا سيّدة غادة فأنا لم أخطِف راضي وأهرب به كما فعلتِ أنتِ بفهد ووسيم. لم
- تنفعِل وتتَفاجأ غادة، تُمسك بخناق سنية: ماذا تَقولين؟!!
- لم أقل شيئًا فقط اتركيني وشأني.. وتهرب من مكانها.

صعدت سنيّة وبدأت بجمع ملابسها وملابس ابنها تحدّثُ نفسها: (لن أعود لمنزل غادة لم أعد أشعر بالأمان). وقرّرت الهرب عند منتصف الليل وأنها لن تعود إلى هذا المنزل خاصّةً بعد أن جمعت مبلغًا كبيرًا من غادة وأعمالها المُقرِفة.. وعند السّاعة العاشرة ليلًا هجم رجالُ الأمن وقبَضوا على جميع من في المنزل.. الكل هَلع وخائف ولا يعرفون ما الذي يحدث، ولماذا يُقبض عليهم؟!

الضّابط سامي: ستَعلمون ماذا يحدث.

وبعد تفتيش المنزل وجدوا بعض أعمال السّحر والشّعوذة، وبقايا الحبل السريّ للأبناء المخطوفين تحفّظَت أجهزة الأمن عليها كدليل إدانةٍ ضد غادة.

وهكذا وصلت غادة إلى خلف القُضبان...

سنيّة في غرفة التحقيق... يسألها الضابط سامي: اسمك.... وسنّك ... وماذا تفعلين في منزل غادة؟

- اسمي سنيّة يا سيدي. وعمري 42 عامًا. أنا خادمة في منزل عادة.

الضابط: وماذا تفعل غادة في منزلها؟ أخبريني بكلّ شيء رأيتِيه.

بدأ الخوف يتسلّل داخل سنيّة: هي تُربّي أولادها فالسّيدة غادة سيدة طيّبة وتعمل بمعالجة السّيدات... هذا ما رأيته منها.

حسنًا... وقّعي وانصرِفي.

- أنا أبصم يا سيّدي... والنّبي عايزة ابني راضي يخرج معايا.

الضّابط بصوت حاد: ابصمي واخرجي..

خرجت سنيّة وهي تنظر لابنها بحزنٍ شديد.

الضابط بأعلى صوتِه: أدخِلوا نواف.

يَسألهُ: اسمك... وسنّك... وما هي قرابتك بغادة.

وقد اعتلَت ملامحهُ الدّهشة: نواف بن عبد الله.. عمري 24 عامًا... وغادة هي أمي.

يُعاود سؤالهُ: ما هو عمل والدتك؟ وأين هو والدك؟

- والدتي تعمل معالجة شعبيّة وتخرج في بعض الأيام لشراء بعض الزّيوت والأعشاب الطبيعية من عطّار الحي.. أمّا والدي فقد طلّق والدتي بعد ولادتي ورحَل.

- ينظر لهُ بحدّة: وقّع وانصرِف... ودَع أخاك التالي يدخل!

يدخل فهد.

الضابط: اسمك وعمرك وما علاقتك بغادة؟

- أنا فهد ولا أعرف اسم والدي.. وعمري 20 عامًا.. وغادة والدتي يا سيّدي.

يدخل وسيم ويسألهُ أيضًا.

- أنا وسيم... وعمري 19 عامًا... وغادة هي أمي...

يسألهُ الضابط: اسم والدك؟

- لا أعلم... تقول أمّي إنّهُ طلّقها ورحل.

يدخل راضي ويسألهُ الضّابط: اسمك... وعمرك... وما علاقتك بغادة؟

- اسمي راضي.. وعمري 20... وغادة جارتنا وصديقة أمي.
- وما هو اسم والدك؟ هل تعرفه؟

راضي يُحاول التذكّر: لا أعلم يا سيّدي.

أخبرهم الضّابط أنهم سيذهبون للمستشفى في الصباح لإجراء بعض التّحاليل لهم وسيَعودون لمنزلهم.

فهد يسأل: ما هي قضيّتنا ولماذا تُسجَنُ نحنُ وأمّي؟

الضابط يصرفهُ للخارج: اذهب مع الشّرطي وأمّك ستلحق بكم لا تقلق.. لقد تقدّمت بطلب أوراق لكم ونحن نعمل اللازم للبحث عن والدك.

يعود وسيم وهو سعيد: وهل سنأخذ أوراقًا رسميّة بعد هذه التّحاليل؟

يُحاول طَمأنتهم الضابط: لا تقلق فالجميع سيأخذون حقوقهم كمواطنين سعوديين.

وبعد إجراءات تحليل DNA. عاد الأبناء للمنزل واتّصل فهد بأخيه خالد الذي جاء على الفور وسأل إخوته عن والدتهم ولماذا قُبضَ عليها؟!

فأجابه فهد: لا نعلم يا أخي لماذا قبضوا عليها نحن ننتظر.. ومن ثم رأوا سنيّة تحمل حقائبها وتمسك بيد ابنها راضي..

سألها خالد أين تذهبين يا خالة أم راضي؟

تتَمسكَن كعادتها: أنا غريبة عن هذهِ البلد ولا أريد أيّة مشاكل.

فهد بغضب: وما دخلك أنتِ بالمشاكل؟ فأنتِ مجرد خادمة.

تدفعهم سنيّة: ابتعِدوا عن طريقي سأرحل..

نواف أثناء حوار أخويه كتبَ على ورقةٍ رقمَ هاتفه ووضعَه في جيب راضي وأخبرَه أن يتّصل بهِ إذا اشترى هاتفًا أو إذا حصل على رقم جديد... احتفظَ راضي بالرقم وحفظَ الرّقم في عقله أيضًا..

ودّع الإخوة بعضهم بعضًا بكلِّ ألمٍ وحُرقة فهي المرة الأولى التي سيتعدون فيها عن بعضهم، وبعد أسبوع طلب سامي من خالد أن يحضر إخوتهُ لقسم الشرطة لوجود أخبار لا بدّ أن يعرفوها وبعد حضورهم صُعِقوا بنتائج التحاليل.

بدأ الضابط سامي بقراءة النتائج: نواف... وفهد... ووسيم... ليسوا أبناء السيدة غادة.

الجميع مُتفاجِئين -إلّا خالد طبعًا- ينظرون في بعضهم بتعجّب ويصرخون وتتعالى الأصوات الكل يتساءلون: لماذا؟ وكيف؟ لا يمكن ... إنها أمّنا!!

الضابط بصوتٍ مُرتفع: كفى... وانتظروا حتى أنهي كلامي واسمَعوا باقي التفاصيل... لقد جاء بلاغ قبل 24 عامًا من المستشفى بأنّ طفلًا قد خُطِفَ من أمّه، وهذه المواصفات انطبقَت على نواف.. نعم نواف ولقد طلبْنا أن يُحضر والدته من الجنوب لعمل التّحليل المُطابق.

أما البلاغ الآخر وبالطّريقة نفسها في الخطْف للابن فهد، فقد عملت والدتك الطّبيبة سلوى التّحليل اللازم وستَلتقي بها بعد التّطابق والتّحقّق من أنها أمك.. واسمك الحقيقي سلطان وليس فهد حسب أوراق المستشفى.

والبلاغ الآخر كان قبل تسعة عشر عامًا ولكن المستشفى يختلف ب حيث إنه مستشفى الولادة والأطفال في الخبر وهذا الابن هو وسيم ووالدتك اسمها فرح ولقد عملنا التطابق وإذا تَحقّقنا من النتائج فسنجعلكم تلتقون بأمّهاتكم.. أمّا البلاغ الرابع فكان من مستشفى الولادة والأطفال في جدّة.. الابن راضي وفي الأصل اسمهُ عُمر وهو ابن السّيّدة كريمة

ووالده اسمه محمّد.. لم نجد كريمة في جدة ولكننا نبحث عنها وسنصل إليها قريبًا يا راضي

تعجّب الضّابط من عدم رؤية راضي فسأل خالد: لماذا لم يحضّر راضي معكم؟!

يقف خالد ويجيب: راضي ليس معنا، هو ليس أخي، إنهُ ابن الخادمة سنيّة.

فهد: نعم يا حضرة الضّابط، راضي قُبِضَ عليه بالخطأ وسنيّة والدته رحلت به.

ضرب الضّابط بكلتا يديه على مكتبه وهو غاضب: أين رحلت؟ ألم أخبركم بعدم الذهاب من منزلكم؟!

خالد: يا سيّدي إخوتي لم يذهبوا وهذه المرأة تسكن لدى أمّي كمُستأجرة وبعدها عملت كخادمة لمدة عشرين عامًا لدى والدتي.

يُلوّح الضابط بيديه: لا بدّ أنّ والدتك لديها شبكة من الخاطفين.

يدافع بحَنَق خالد: لا يا سيّدي فوالدتي امرأة طيّبة وأم جيّدة.

- أمّك أخبرتني أنّ لديك أختٌ اسمها سحر؟
- نعم يا سيدي لدي أخت شقيقة واسمها سحر.

يأمرهُ الضابط: يجب أن تأتي بأختك الآن يجب أن نجري لها تحاليل التطابق كباقي إخوتك للتّحقّق من أنّكما ابنا هذه السّيدة.

بحزن يرد خالد: نحنُ ابناها وربّانا والدي وهو لا يُنكر زواجه من غادة، ونواف أيضًا هو ابن زوجها الثّاني.

الضابط: ولكن اتّضح أنّ الزّوج عقيم ونسب نواف لكي يُثبت للناس أنّهُ ينجب، لقد تواطأ مع طَليقتِه وسيُسجن.

خرج خالد من النّيابة العامّة وهو يفكّر بما فعلتهُ بهِ والدته، يجرّ الخُطى بتثاقلٍ نحو منزلِ أختهِ... ماذا سيقول لزوجها؟! وماذا سيفعل؟

رأى الضّابط الأسى والحزن على وجوه الأبناء فحاول أن يطمئنهم بألّا يخافوا وأنّهم سيعودون لذويهم ويعيشون بأفضل حال...

إنّ حزنهم ليس إلّا لما خسروه من حياتهم وعمرهم بغيرِ دراسة أو عمل كباقي البشر وحزنهم لأنّهم سيفترقون، فقد اعتادوا النّوم والحديث واللّعب مع بعض، وبعد أن كبروا تغيّرت حياتهم كلّها ولكنّهم حتّى اللحظة يجهلون ما يخبّئه القدر لهم.

سامي يسألهم: ماذا عن راضي؟ كيف سنُعيده لعائلته؟ هل لديكم معلومات عن أحد أقربائهم أو معارفهم هنا في المملكة؟

نواف بتهكّم: ربّما لا يكون راضي هو عمر يا سيّدي.

- لقد تحقّقت من النّتائج وهي مطابقة لهُ لم يبقَ سوى تطابق والدتهِ، هل تستطيعون مساعدتي؟ فهو مُختطَف.

يطمئنهُ نواف: لقد أعطيته رقم هاتفي وأنتظر اتّصالهُ.. هل نذهب يا سيدي؟

- اذهبوا الآن وسأعاود الاتّصال بكم، لا تغادروا المنزل.

خرج الإخوة الغرباء لأوّل مرّة وهم يمسكون بأيديهم وينظرون في وجوه بعضهم كيف هي حياتهم.. فقد أصبحت أشبه بالعدم، وكأنّ كلًّا منهم يتساءل: لماذا أنا؟ لماذا اختار لي الله هذا القدر؟ ما ذنبي وماذا فعلت؟ لماذا لا أعيش حياتي الطبيعية كباقي الأطفال؟ وهل ستكون حياتي مع أهلي الحقيقيين أفضل مما هي عليه الآن؟ أم سأتمنى حياة غادة؟!

أسئلة كثيرة وتخبّطات كبيرة وحيرة وارتباك تظهر على وجوه الجميع...

نايف بحزنٍ شديد: لم تكُن الأمّ الّتي تمنّيْتها ولا ذلك المنزل الذي أعيش فيه وأتمنّاه.
وسيم بصوتٍ مُتهدّج: لقد دمّرت حياتنا، يوجد بداخلي إحساس بالنقص، في كل صلاة عيد وأنا أشاهد الأبناء برفقة آبائهم، كانت تُرافقني دائمًا فرحةٌ ناقصة والسبب في ذلك كلّه هي "غادة."
شرع الضّابط باستكمال تحقيقاته بعد خروج الأبناء.. فاستدعى غادة للتّحقيق معها.
الضابط: تفضّلي يا سيّدة غادة بالجلوس.. اسمك الكامل... وسنّك؟
غادة: اسمي غادة عبد الواحد.. وعمري في أواخر الأربعين.
الضابط ينظر لبطاقة غادة ويُخبرها: تاريخ ميلادك يشير إلى أنّكِ في الستّين.
المرأة لا تحبّ أن تخبر بعمرها وهذه مجرد أرقام لا نعلم صحّتها.
الضابط سامي وهو يبتسم: حسنًا.. لماذا خطفتِ هؤلاء الأطفال من أمّهاتهم؟
- إنّهم أطفالي وأنا أمّهم، أنا من ربيّتهم واحتضنتُهم.
سامي يواجهها باتّهام: أنتِ لم تُنجِبيهم فهناك من بلّغ عن اختطاف الأطفال منذ سنوات.

غادة طأطأَت رأسها: لقد أخذ زوجي ابنَيّ وهما صغيران وجعلني وحيدة أصارع ألم فراقهما، وتجرّعت الحزن ليالي طويلة وباردة بدونهما، كنت أرى كوابيس بأنّهما يتعرّضان للخطَر ويصرخان باسمي.. لم يكُن لديّ مُتنفّس سوى زيارة المستشفى لرؤية الأمهات وهن يَضممْن أطفالهن وأنا خالية اليدين وحضني كالثّلج منذ فراق طفلَيَّ، ومُنذ طفولتي وأنا أحمل الدُّمى وأهتم بها وأعشق دور الأم... لم أُسِئ لأبنائي، لقد ربيتهم وعلّمت نواف وهو الآن موظّف في شركةٍ مَرموقة، يا سيدي لم ينقُصه شيء وأنا أمّهُ؟ وانظر إلى فهد ووسيم لم ينقصهما سوى التّعليم لعدم وجود إثبات لهما أو شهادة ميلاد.

الضابط: من أين لكِ مصدر دخل؟

تنظر للضابط وتجيب: أنا أعمل معالجة شعبيّة والنساء خيرهنّ وفير.

يُقاطعها: وساحرة أيضًا، وأعمالك كلّها مَشبوهة منذ أكثر من عشرين عامًا هذا ما قالهُ الجيران عنكِ.

تَستطرِد بقولها: عندما عملت ساحرة كان تهديدًا من ناصر لقد رآني أخطف فهد وهدّدني وأنا أحتمل كل شيء ما عدا حرماني من أطفالي..

وكنت في شبابي أسهر وأتقاضى مبالغ تسد حاجتي أنا وأبنائي، وبعدما كبرت كرهتُ هذه الأعمال واستغفرت الله عسى أن يغفر لي..
البشر لا يغفِرون ولا يستُرون أحدًا، ولكنّ الله غفور رحيم بعبادِه.
يقف الضابط ويطلب منها أن توقّع على أقوالها وتنصرِف، ويخبرها أنهم سيكملون فيما بعد.
غادة تقِف: أرجوك يا سيدي أنا أريد رؤية أبنائي.. أود الاعتذار لهم..
يَعدها الضابط: سيحصل اللقاء ولكن فيما بعد..
تنصرف غادة مثقلة بهمومها وكل تفكيرها الآن كيف ستُبرّر فعلتها لأبنائها وهل سيغفرون لها أم سيتخلّون عنها وهل سيفضّلون العودة إلى أمهاتهم اللواتي ولدنهم أم البقاء مع الأم التي ربّت وسهرت وتعبت، وماذا يدور في رؤوسهم الآن.. ومن يا ترى يطعمهم ويهتم بهم؟؟
عند دخولها للعنبر السّادس سألتها جميلة: ماذا حصل؟ هل قَسا الضّابط عليكِ؟!
تَوكّأت عليها وأخبرتها أنّه لم يفعل وسيكمل التحقيق فيما بعد!
ربّتت جميلة على كتف غادة وطلبت منها أن تخبرها بكل شيء لتدوّنه ولكنَّ غادة كانت

متيقّنة أنّ المحقّق يعلم أن القاضي سيحكم بالإعدام ولكنّه يُمهِلها حتى تتوب وتستغفر، هي تعلم أن هذا مصير من يسطو على حقوق غيره. لقد حرمت غادة هؤلاء الأطفال من الحياة مع ذويهم.. وتصرّفت بأنانيّة وهي الآن تنتظر رحمة ربّها فقط أو أن يُنظر في قضيتها من الناحية الإنسانية.

***

سارت سنيّة مسرعة متلفتةً يمينًا وشمالًا ممسكةً راضي بيده وتجرّهُ خلفها، استقلّت سيّارة أجرة وسافرت متجهةً إلى جدّة، راضي الشاب اليوم أصبح بعمرٍ يسمح له بالتفكير بصوتٍ مرتفع، ويمتلك الجُرأَة ليطلب تفسيرًا لما يدور حوله من أحداث فسألها: أمي لماذا نذهب لمكان لا نعرفه؟ أنا أريد البقاء مع إخوتي نواف وفهد ووسيم، صرخت سنيّة بوجهه وأمرتْه بالصّمت، محاولةً تذكيره: إنّهم ليسوا إخوتك.. أنتَ ابني.

كان لا بدّ لراضي من الصّمت وانتظار السّاعات القادمة أو الأيام المقبلة علّه يفهم اللّغز الغامض والحقيقة المرّة، ولكنّه في قرارة نفسه يقول إنّها ظالمة وقاسية لا يمكن أن تكون أمّا بهذه

القسوة، وعندما وصلا توجهت سنيّة على الفور لمنزل ميرفت في الحيّ الشّعبيّ القديم، فتحت لها سيّدة وأخبرتها بأنّها لا تعلم عن المرأة شيئًا ما أثار استغراب راضي فسأل أمه: من هي ميرفت هذه يا أمي؟!

فردّت بغضب: إنّها ابنة عمي ومنذ زمن لم أزرها اصمت ولا تُكثِر الأسئلة.

وهنا بدأت وجنات رحلة المتاهة والتفكير والهم من جديد دون تفكير كالعادة، تعمل ما يحلو لها، بدأت تسأل المارّة عن غرفةٍ للإيجار فأرشدها أحدهم إلى امرأةٍ عجوز تسكن وحيدة وتؤجّر غرفَ منزلها لتأنسَ بقاطِنيها.. طرقت سنيّة الباب ففتحت لها السيدة المسنّة كانت تدعى أم صالح فرحّبت بسنيّة وابنها.. وسألتها السّيّدة: من أنتِ يا ابنتي وماذا تريدين؟

أنا وجنات يا ستّي، فرمقَها راضي بنظرةِ المُتفاجئ وكأنّه لا يعرفها فأومأت له أن يصمُت.

نظرت لها العجوز وسألتها عن حاجتها، فأجابتها وجنات بأنّها تريد غرفةً لها ولابنها وهي تدّعي الضّعف وقلّة الحيلة.

أشارت العجوز لها بيدها: انظري هناك إلى تلك الغرفة إذا راقت لكِ فسأخبرك بقيمة الإيجار،

أمسكت وجنات بيد راضي وذهبت إلى الغرفة فأعجبتها واتّفقت مع العجوز على استئجارها، وقد عُرفَ عن أم صالح طمعها وحبّها للنّقود فقالت: إنّ إيجارها خمس مئة ريال والمطبخ مشترك معي وتهمّني النّظافة.

وافقت وجنات على طلبات العجوز، ولكن هنا قرّر راضي الخروج عن صَمتِه والثورة على والدته فسألها بغضب: أمي لماذا أخبرتِ المرأة بأنّ اسمكِ وجنات، لماذا تخفين عليها اسمك الحقيقي؟

وجنات: إنّهُ اسمي.. انظر الجواز سفري، أخفيت الأمر على غادة لخوفي من أن يبحث والدك عنّا فهو لن يتركنا بحالنا... اصمت الآن ولا تُزعجني!!

بدأت وجنات برحلة البحث عن العمل حتى رأت رجلًا يبيع الخضار في الشّارع.. فسألته عن عمل لها...

فأجابها: هل تستطيعين صنع بعض الأطعمة وبيعها في الشارع؟

تهزُّ رأسها: نعم أستطيع ولكنني أخشى من الشرطة ولا أريد أن أتعرّض لأي موقف يُجبرني على ترك ابني وحيدًا.

الرجل: لا عليكِ.. لن يحدث أي شيء، وبالنسبة
لابنك دَعيه يبيع المناديل عند تلك الإشارة
وبهذا يَبقى أمام عينك.
عادت وجنات لمنزل أم صالح وأخبرتها بأنّها
حصلت على عمل واستأذنتها باستخدام المطبخ
لتَحضير الوجبات وبيعها...
وافقت العجوز أم صالح على طلب وجنات فهي
على الرغم من طمعِها وحبها للنقود، إلّا أنها
طيبة القلب وفي الوقت نفسه فهي تخشى
الغرباء وتتعامل معهم بحذر، وبعد عدّة أيام
سألت أم صالح وجنان عن زوجها فأجابتها بأنّهُ
توفّي قبل ولادة راضي الذي كان يُصغي لحديث
والدته... فصرخ:
ألم تقولي إنهُ تزوّج وتركنا، ألم يكن اسمك سنيّة
وكيف الآن أصبحتِ وجنات.. لماذا تكذبين؟!!
هكذا أنا لا أشعر بالأمان معكِ.
حاولت وجنات تهدئتهُ دون جدوى فهرب من
المنزل وهو يمسح دموعه.. انطلقت مسرعةً
خلفه، فزاد من سرعته متّجها إلى الشارع
العام... تعبت وجنات من اللّحاق بهِ فعادت...
بينما هو أكملَ مسرعًا دون النّظر وراءه، حتّى
صدمته سيّارة مسرعة أثناء عُبورِه الشارع فألقت

بجسده النّحيل على الرّصيف، وسالت دماؤه أمام المارّة.. حملهُ الشاب في سيّارته وذهب بهِ للمستشفى وعلى عَجَلٍ أسعفهُ ودخل راضي في إغماء إثرَ الارتطام وكسرَت ساقُه، ولم يستطع أحدٌ التّعرّف إليه فليس لديهِ هويّة ولا يحمل هاتفًا.

بدأت وجنات بالبحث عنهُ ولم تجده فزاد قلقُها فابنها لم ينَم ليلةً بعيدًا عنها، سألت المارّة ولكنّها لم تحصل على إجابة وبقيت على هذه الحال يَومين متتاليين.

***

بدأت خيوط قضيّة غادة تتوضّح أكثر فأكثر فالضابط يتابع التحقيقات عن كثَب، استَدعى ناصر الذي ورد اسمه في التحقيق مع غادة.

- اسمك؟ وعمرك؟ وما هو عملك؟
- اسمي ناصر بن محمد وعمري 55 عامًا وأعمل سائق تاكسي يا سيدي.
- ما هي علاقتك بغادة؟

ناصر وقد بدَت عليه علامات الارتِباك: أنا أقوم بتَوصيلها في بعض المَشاوير يا سيدي.

يُحاول الضّابط تَضييق الخِناق عليه: هل أنت سائقها الخاص؟

يصمتُ قليلًا ليفكّر، يجيب: في حال لم يكن لدي عمل نعم سائقها الخاص.

يُباغتهُ الضّابط بسؤال آخر: أنت من علّمها السّحر والشّعوذة؟!.. لقد اعترفت عليك.

يحاول التّملُّص: لا ياسيدي إنّها كاذبة أنا أُوصلها إلى المقابر ولا أعلم ماذا تفعل...

يُقاطعهُ الضابط ويُكمل: وأخبرتني أنّك تساعدها في خطفِ الأطفال أيضًا؟

حاول ناصر أن يقف لكي يجيب، فدفعهُ سامي للجلوس: أقسم لكَ يا سيدي هي من تخطف وأنا سائق فقط.

يَدنو منه: هل أوصلتْها للمستشفى؟ لا تكذب فتصوير الكاميرات يُثبت ذلك؟

حاول ناصر الدّفاع عن نفسه: نعم يا سيدي كانت تزور أختها وتوفّيت وأخذَت ابن أختها معها.

الضابط: وما أدراني أنّك لا تكذب فأنت أيضًا لك يد سابقة في جريمة اختطاف وسيم؟!

ناصر محاولًا إثبات صدقهِ للضابط: غادة لا تكذب اسألها يا سيّدي وستقول الحقيقة لك.

يبدأ الضابط بالدّوَران حول ناصر: الجيران قد رأوك أكثر من مرّة تدخل المنزل ليلًا وتخرج في الصّباح؟
يمسح تعرّقه بمنديل يخرجهُ من جيبِه: أنا يا سيدي... أنا.. متزوّج من غادة ... قالها بتَلعثُم.
الضابط يُباغِتهُ: أين هو عقد الزّواج؟
ناصر يقبض كفّيه بعضهما ببعض مُرتبكًا: إنّهُ... إنّه.. يَلتَفت يمينًا وشمالًا، يُتابع: إنّه عقد عُرفيّ وليس شرعيًّا، هي امرأة سعوديّة وأنا أجنبي ويصعب عليَّ الارتباط بها.
احتدّت نَبرةُ الضابط وصرخ بوجه ناصر: للمرّة الأخيرة ما نوع الأعمال بينك وبين المتّهمة؟
ناصر الذي ازدادَت نبضات قلبِه حينها وبدا عليه الخوف ورهبة الموقف: هناك أعمال ربْط وفكّ السّحر لشخصيات معروفة، وكنت أجلبهم لمنزل غادة لتُساعدني ويسهل عليه دخول الأماكن الممنوعة لدخول الرّجال يا سيّدي.
جلس الضابط على كرسيّه وسألهُ: وماذا تعرف عن الأولاد المخطوفين؟
أسندَ ناصر ظهرَه للكرسي ثم تذكّر قائلًا: لقد جاءني اتّصال يخبرني أنّ هناك امرأة تُريد أن أُقلّها بمبلغٍ كبير اتفقنا عليه ذهابًا وإيابًا، أوصلتها

المرّة الأولى وهي تخطف فهد ورأيتها تلبس المِعطَف الأبيض، وكنت أنتظرها في الخارج وما هي إلّا ساعةً واحدة أو أقل حتى أتت تحمل طفلًا وأمرتني بالانطلاق بسرعة، تعجّبت لأمرها وعدتُ للمستشفى بعد أن أوصلتها لمنزلها فرأيت الشّرطة تَستنفِر وتُفتّش داخل المستشفى، وعندما سألت أحد المُتطفّلين.. لماذا المستشفى مقلوبٌ رأسًا على عقب؟! ردّ يشرح ما يراهُ: بأنّ هُناك طِفلًا مُختطفًا، أيقنت أنّ خاطفته تلك السّيدة وبدأتُ أهدّدها وأبتزّها، وكانت تشتري صمتي بمبالغ بسيطة حتّى ضاقت ذرعًا وبعد فترةٍ طويلة، طلَبَت أن أوصلها الخبر كي تزور أُختها في مستشفى الولادة والأطفال، فلم أمانع وبعد أن دخلت المستشفى بأقل من ساعة عادت وهي تحمل طفلًا فسألتها: هل اختَطفتِه؟! ردّت بإشارة بإصبعها إلى كاميرات المُراقبة التي ضبطتْني أمام المستشفى وصوّرت الاختطاف وظهرت سيارتي، وانقلب السّحر على الساحر وحوّلتني إلى سائقٍ بالمجّان معها لشدّة خوفي من أن يفتضح أمري وبعد فترة وبحكم لقائي الدائم بها نشأت بيننا علاقة انتهت بالزّواج وصرت أعلّمها السحر.

وضع الضابط القلم بغضبٍ على مَكتبِهِ وأمرهُ بأن يوقّع على اعترافه وينصرِف.
نهض ناصر فرحًا بانتهاء التّحقيق: هل أعود لمنزلي؟
يهزّ سامي رأسهُ بالنّفي: من الآن فصاعدًا منزلك هنا، ونادى الشّرطي: أيها الشّرطي اذهب بهِ للزّنزانة، وأحضروا لي غادة.
دخلت غادة غرفة الضابط مثقلةً بما زرعتْه الحياة في قلبها من همومٍ وأحزان وقد بدأت انحِناءات ظهرها تبدو واضحةً.
الضابط سامي رحّب بها وطلب منها الجلوس...
- كيف هو حالك؟
غادة حاولت ابتِلاع ريقِها بحزن: لست بخير.. وكأنّي قضيتُ دهرًا في هذا السجن.
- ألم تفكّري بأنّ هذه ستكون نهايتك؟
غادة وقد أسندت ظهرها إلى الكرسي فكرت لحظةً، ثمّ قالت: علمتُ أيضًا أنّ السّتر ليس لهُ غطاء للمذنب.
أخبرها سامي بأنهُ التقى بالمتّهم ناصر واعترفَ له بكلّ شيء وأنّهُ اعترف بالزواج منها، وسألها: هل هذا صحيح؟

أجابتْه غادة وهي تهزّ رأسها بالإيجاب: لم نستطع الزّواج بشكلٍ رسمي فكان بيننا ورقة زواج عرفي وكان يساعدني في شؤون المنزل وينام بعض الأيام والبعض الآخر يغيب.
يُباغتها الضّابط: هل خطف معكِ وسيم؟ هل كان شريكك في الجريمة؟
ردّت عليه: نعم فقد سافرتُ معه إلى الخبر ولكن لم يكن يعلم أنّني ذاهبة لاختطاف الطفل لقد خدعتُه بأنّ أختي مريضة كما أسلفت، ولكنّني كنت أحاول أن أتخلّص من ابتِزازِه لي آنذاك فورّطتُه بهذه العملية كي أضمنَ صمتَه وأستفيد منه لتَلبيةِ احتياجاتي.
أكمل سامي أسئلته وتحقيقهُ معها: وسنيّة هي خادمتك أليس كذلك؟
- في البداية جاءت لتستأجر غرفةً في منزلي هي ومعها ابنها، وبعدها عملت لدي كخادمة.
جلس سامي أمامها على الكرسي وسألها: ألم تُخبرك أنّ ابنها مختطف أيضًا.
غادة بشيءٍ من الدّهشة والهلَع: هل راضي مختطف يا سيدي؟

- سأجيبك.. نعم.. إنّه مختطف من أسرةٍ سعوديّة في جدّة.. ألم تخبرك سنيّة؟ وهل تعرفين شيئًا عنها؟

وقفت غادة من ذهولها: أين هي الآن... لا... هي لم تُخبرني بشيء.

سامي يأمرها بالجلوس: لقد هربَت من منزلك وأخذت عُمر معها.

غادة بصوتٍ حاد: من هو عُمر؟! وهل تعلم أين ذهبت؟

ألا تَعلمين أنّ عمر هو الابن المُختطف؛ وأنا أسألك.. ما هي الأماكن الّتي ترتادها؟

تردّ بقلق وهي منشغلة بالتفكير بمن يهتم بأبنائها بعد هروب سنية: هي لا تخرج كثيرًا.. في السّابق كانت تزور جارتنا فوزية ونشأت بينهما علاقة صداقة كونها من مصر وليس لها علاقات أو صديقات سوى في خدمة البيوت.. وأعتقد أنّ اسمها وجنات يا سيّدي، لقد قرأت جواز سفرها وأنا أفتّش في غرفتها.

سامي يأخذ ورقةً ويسأل: أين أجد فوزيّة هذه؟

يا سيّدي.. فوزية رحلت للرّياض بعد وفاة زوجها، رحلت مع ابنها الوحيد بالقرب من مقرّ

عمله.. ومن يومها سنيّة لا تخرج إلّا عند الضرورة.
الضابط يعود ليسألها عن الأبناء المخطوفين:
لقد وجدتُ الحبل السّري للأبناء، لماذا احتفظتِ بهَا؟
غادة تبتسم: كنت أحتفظ بها لمثل هذا اليوم... لكي تجدوها وتتعرّفوا على أمهاتهم.
يرد سامي: ألم تعلمي أنّها دليل إدانة لكِ؟
- بالطّبع كنت أعلم وإلّا فلماذا احتفظت بها لقد كنت بانتِظاركم.
سامي يمد يده مشيرًا لها: انصرفي الآن..
تهم غادة بالنّهوض وتسأل قبل أن تخرج: أين هم أبنائي؟! لماذا لا تدعني أراهم؟
وقبل أن يغلق الباب خلفها يجيب ليسَ الآن، عندما أنتهي من التّحقيقات سأجمعكم.
عادت غادة إلى الزّنزانَة وهي تجرّ ذيول اليأس والشعور بالنهاية وهمومها ثِقال، تخاف أن تموت ولا ترى أبناءها ثانيةً.
يقف الطبيب فوق رأس راضي الذي بدأ يستيقظ توًّا من غَيبوبتِه التي دامت ليومين متواصلين، بدأ يستفيق مُتمتِمًا باسم سنية... سنية... وجنات... سنيّة.

فتح راضي عيونه فرأى الطبيب وبعض الممرضات يقفون حول سريره، وبدأ الطبيب يسأله بعض الأسئلة عن اسمه واسم أمه وهو يجيب وعندما سأله الطبيب عن عنوانه أو اسم والده أجابه بأنّه لا يعرف، خرج الطبيب، فطلب راضي من المُمرّضة أن تُعيرَه هاتفها النّقال، فاتّصل بنوّاف وعندما سمع صوته بدأ يجهشُ بالبكاء وأخبره بحاله وأنّه ليس بخير وأخبره باختصار عمّا حصل معه منذ لحظة خروجه مع سنيّة التي تحوّلت فجأةً إلى وجنات وأنّها جاءت إلى جدّة للبحث عن ابنة عمها ميرفت، ثم أخبره عن اسم المستشفى وعنوانه بعد أن طلب من الممرضة مساعدته.

يُخبره نواف على عجلَة: سوف آتي في الحال... ولا تُخبر سنيّة بقدومي.

- هي لا تعلم أنني في المستشفى.
- سأوافيك وأُخبر الضابط سامي بذلك.

راضي مُتعجّبًا: وما دخل الضابط بذلك؟

- ستعلَم بكلّ شيء عندما نلتَقي.

انطلقَ نواف بسيّارته نحو مركز الأمن المقابلة الضابط وأخبره بالاتّصال بينه وبين راضي..

وجنات التي كادت أن تُجن تُمشّط الحيّ باللّيل والنهار جيئةً وذهابًا، لعلّها ترى ابنها لقد كانت تسأل المارّة وكأنّها مجنونة، علّها تجد الدخول إلى أي مستشفى للبحث عنه... أثرًا أو إشارةً عنه، هي لا تستطيع أن تخبر الشرطة باختفائه ولا تستطيع الدخول إلى أي مستشفى للبحث عنه..

على الفور حجزَ سامي أوّل رحلة طيران لهُ ولنواف وفهد باتّجاه جدّة وكلّه حماس لإلقاء القبض على الخاطفة، وعندها تذكّر كلام غادة بأنّ الاسم الحقيقي لسنيّة هو وجنات والآن يعرف أن لها ابنة عم اسمها ميرفت فأجرى اتّصالات للتحرّي عن هذين الاسمين في مستشفى الولادة والأطفال بجدّة قبل عشرين عامًا إن كانتا قد سجلتّا كموظّفتين آنذاك.

وعند وصولهم للمستشفى رأوا راضي وهو يرقد على السرير الأبيض ورجله مكسورة، كانت فرحة اللقاء عارمة، فعندما شاهد أخويه أجهشَ بالبكاء وحضنهما بشوقٍ لهما فهذه أوّل مرّة يفترقون فيها عن بعضهم.. عندما رأى الضّابط هذا المشهَد المُؤثّر تساءل بحزن: (هل ما يحدثُ

لهم حلال أم حرام؟!!! وما هو ذنبهم فيما يعانون؟).
اقترب الضابط أين والدتك يا راضي؟
لم أرَها منذ دخولي للمستشفى يا سيدي.
الضابط يمسح على رأسه بحُنوّ: هل تعرف أين هو منزلكم؟
راضي مُحاولًا التذكّر: لا أعرف مكان الحيّ جيّدًا.. هي لا تدعني أخرج وحدي ولا تسمح لي بالاعتماد على نفسي.
الضّابط بارتِباك: في الحقيقة يا بني لا أعلم كيف أخبرك.. هذه المرأة ليست والدتك الحقيقية.
راضي ينظر بدهشَة ويحاول أن يعتدلَ بجلستِه ليَستوعبَ ما سمعَه: لم أفهم!! يا سيّدي هل أنا مُختطَف من غادة أيضًا؟
الضابط يقترب ليهدّئ من روعِه: يُؤسفني أن أخبرك؛ في الحقيقة... لا... غادة لم تَختطفْك، من اختَطفَتك هي وجنات وسأذهب للمستشفى وأحقّق في الأمر، وأنتم انتظروني لحين عودتي.
بدأ الضّابط بالسّؤال عن جريمةِ اختطاف عُمر، واتّضحَ من خلالِ الملفّات الرّسميّة أنّهُ فعلًا يوجد ممرّضة اسمها ميرفت قد أنت بابنة عمها وجنات لتعمل عاملة نظافة، وفي الليلة الّتي

اختفَت فيها وجنات من المستشفى قالت ميرفت مُدافعةً عنها: إنّها عادت إلى مصر بعد أن فُوجئَت بخبر وفاة والدها. وأشيعَ بالمستشفى أنّ ميرفت سُجِنت، والبعض الآخر قال إنها عادت للعمل بمستشفى خاص، ولا يوجد أي إثبات بأنّ وجنات هي مختطفة الطّفل خاصّةً أنه في ذلك الوقت لم تكن كاميرات المراقبة كتكنولوجيا قد وصلت إلى المستشفى، فقد خرجت وجنات في موعدها وعند التّحقيقات قال حرّاس الأمن إنّها غادرت بشكلٍ طبيعي وهي تحمل كيسًا للشاي والقهوة.

أخبر الضابط سامي مدير المستشفى بأنّه لا بدّ من القبض على وجنات، وأنّه بحاجة إلى كل معلومة مهما كانت صغيرة حول القضيّة، وأية معلومات متوفرة حول والدَي الطّفل عمر (راضي) الموجود الآن في المستشفى، فلا بدّ من العثور على والذي عمر حتى يتم إجراء تحاليل DNA للتحقق.

حاول مدير المستشفى الجديد تقديم المساعدة ووعدَ الضابط بأن يَبذلَ قُصارى جهده في تجميع المعلومات من الملفات السابقة.

طلب سامي التحقيق مع السائق الذي دَهسَ راضي بسيارته وعند قدومه طلب منه أن يَصطحبَه إلى الحي أو المكان الذي حصل فيه الحادث وفعلًا استجابَ السائق لطلبِ ضابط التحقيق وعندما وصلا إلى المكان بدأت عملية البحث والاستِقصاء.

بدأ الضابط يتنقّل في حي الهنداوية القديم مكان الحادث وبدأ يسأل كل من يُصادِفه في ذلك الحيّ عن الطفل عمر ووالدته ولكن الجميع لا يعرفونها جيّدًا، وعندما عجزَ وتعبَ من البحث طلب من الرجل أن يذهب بمفرده لبائع الخضار في الحيّ لتَوقّعه أن الناس هنا يَخافُون من الزّي العسكري.

ذهب الرجل -سائق السيارة- وسأل بائع الخضار، بينما الضابط يراقب من بعيد.

السائق: لقد دَعستُ شابًّا قبل أربعة أيام ولا أعلم إذا كان من سكّان هذا الحي.

بائع الخضار واسمه أبو منصور: ما هو اسم الشاب؟

- اسمهُ راضي، وهو الآن في المستشفى المركزي يتلّقى العلاج.

أبو منصور يضرِب كفّيه بعضهما ببعض: لا حول ولا قوة إلّا بالله؛ أعتقد أنّ والدته المسكينة كانت تبحث عنهُ سأخبرها بالأمر لا تقلق.
شكرَه السائق وعاد مُسرعًا للضابط ليُبشّره أنّ بائع الخضار يعرف أم راضي وأنه سيذهب لإخبارها عن ولدها.
عاد سامي مُسرعًا إلى المستشفى لانتظار وجنات الخاطفة، وكان الحزن قد بدأ يتسلّل إلى قلب راضي المَصدوم بحَقيقتِه وحقيقة أمه وأخذ يحادث أخويه ويخبرهما أنه طوال الفترة الماضية لم يشعر بأنّ وجنات أمّه بسبب قسوتها المُفرِطة عليه وأخبرهما بشعوره أن لديها مشاكلَ نفسيّة فتصرّفاتها غير مفهومة فأحيانا تكون طيّبة وأغلب الأوقات شرّيرة وقاسية، إنها ليست متّزنة ولو لم تكن كذلك إذًا فلماذا اختطَفتْه من عائلته؟
بدأ عمر يعود بذاكرته لسنوات مضَت ويستذكر بعض الأحداث الغريبة التي لم يفكّر بها سابقًا.. فكّر قليلًا ثم نظر للضابط وقال: أنا لا أعرف كيف تفكّر وجنات ولا أعرف حقيقة هؤلاء السّيدات.. عندما كنت في الثانية عشرة من العمر اصطَحبتْني وجنات إلى الحديقة حيث كان

الكثير من الأولاد هناك يلعبون، وقد طلبت مني أن أستَدرجَ طفلةً صغيرة لألعب معها وعندما قمت بذلك، أمسكت وجنات تلك الطفلة من يدها وأخذتها بعيدًا وتركتني على المقعد وحيدًا ثمّ عادت من دونها.

حاول سامي أن يتذكر: نعم... نعم... صحيح لقد قرأتُ عن بلاغٍ منذ عدّة سنوات عن طفلةٍ مفقودة وكان عمرها ثلاث سنوات ونصف السنة، أذكر هذا في بحثي عن ملفات المختطفين.

استطرد راضي بالحديث: نعم هي بهذا العمر تقريبًا، وكان عمري حينها 12 عامًا...

فهد بوَجهٍ مُتجهّم: ألا تذكر ما حصل لتلك الفتاة؟ لا أذكر، ولكن وقتها تركتني أمي أنتظرها على أحد المقاعد ومن ثم عادت من دونها.

أسند سامي رأسه للكرسي: لا نعلم، ربّما نجد الإجابة لدى وجنات وها نحن ننتظرها، من المؤكّد أنّها ستأتي إلى هنا قريبًا... أكمل...

- لا يوجد شيء آخر لأكمله، إنّه مجرد مشهد حضرني الآن إذ لربّما تكون وجنات قد خطفَت تلك الطفلة أيضًا.

الضابط: لعنها الله... لقد تذكّرت هذا البلاغ، حسنًا سأهتم بالموضوع لا بدّ من القبض على وجنات أوّلًا وبعدها سيَنكشِف كل شيء.

وصلت وجنات إلى المستشفى واتّجهت إلى مكتب الاستقبال، لقد كانت شاحبةً خائفة، جاحظة العينين، تحدّق بالمرضى والموظفين بحذرٍ شديد وشعورها كمذنبة جعلها تظن أنّ الجميع يراقبونها، جسدها يرتعد خوفًا وشوقًا وارتِباكًا، سألت موظف الاستقبال عن غرفة راضي، وبدأت الركض في الممرّات كالمجنونة وكأنّ شبح؟ يُطاردها، وعند وصولها إلى غرفة راضي وقبل دخولها وقفت لحظةً لتلاحظ وجود الضابط سامي يجلس مع نواف وفهد بالقرب من راضي فاختبأَت وتراجعت للخلف قبل أن يلاحظوا وجودها وانسحبَت بخطواتها للخلف والخوف ينهَش من جسدها وفي هذه اللحظة اصطدمَت بممرّضةٍ أثناء خروجها من غرفةٍ مُجاورَة، وقفت الممرضة مواجهةً لوجنات والدهشة في عينيها وكأنّها لا تصدّق ما تراه عينها، إنّها ميرفت...

وجنات متفاجئة: ميرفت؟!! ماذا تفعلين هنا؟!!

ردت ميرفت؟!! إنّه مكان الطّبيعي.. أنا أعمل هنا... وأنتِ ماذا تفعلين هنا؟ ولماذا أنتِ خائفة؟! ممَّ تهربين؟

تضَع يدها على فَم ميرفت محاولةً إسكاتها فهي لا تريد أن تُثيرَ انتِباه أحد: تعالي معي سأخبرك بكلّ شيء...

تذهب الاثنتان معًا إلى مكانٍ مُنعزل وتُخبرها وجنات بما يحدث معها: ابني.. ابني.. مريض ولا أستَطيع رؤيته.

تتّسع عيناها من هول ما سمعَت ابنك الذي خطفتِه في تلك الليلة المشؤومة؟!

وجنات وهي تمسح دموعها وتَتوسّل إليها: نعم هو ابني لقد ربّيْته.. أريد منكِ مساعدتي في إخراجه من هنا.

طلبت ميرفت منها أن تذهب معها إلى المنزل لتَفهمَ منها القصّة، بعد أن طمأنتْها أنّ ابنها لن يستطيع أحد أن يُؤذيَه.

اطمأنّت وجنات لكلام ميرفت وذهبت معها للمنزل، وتفاجأت وهي تدخل منزلها بأنّها قد تزوّجت.

عرّفتها على زوجها: إنهُ "أيمن" فنّي الأشعة بمستشفى الولادة والأطفال الّذي عَملنا به، أتتذكّرين يا وجنات؟

- نعم إني أذكر كُل مُوظّفي المستشفى.

وبعد احتِساء القهوة خرج أيمن لتبدأ ميرفت باستِجواب وجنات عن كل ما حدث معها خلال الأعوام السابقة منذ لحظة اختطافها لعمر وحتى اللحظة الحالية..

سألتها ميرفت: لماذا فعلتِ هذا بي؟ لقد أردت لكِ الخير وكافأتِني بصَفعتَين على وجهي، الأولى سرقتِ تَحويشَة عمري والثانية تسبّبتِ بسِجني دون ذنب وتشوّهت سُمعتي بسببك، وبعد خروجي من السجن لعدم إثبات جريمة الخطف أو التّخطيط لها، طُردتُ من المستشفى، وأردت العودة لبلدي ولم أجد قيمة التّذكرة ولم أستطع العودة لصديقاتي في العمل، والاستِدانة منهن، ولكن سخّر الله لي أيمن رأيتهُ مصادفةً، فتمسّك بي ولم يتركني، وهو بحكم عمله لهُ صداقاتٌ كثيرة في أغلبِ المستشفيات الخاصّة فتوسّط لدى مدير المستشفى الذي رأيتني اليوم أعمل فيه، ومنذ ذلك الحين ونحن نعمل لنؤمن لنا

منزلًا في مصر.. ولكن سؤالي لكِ لماذا خطفتِ الطّفلَ من أُمّه؟

وجنات والدّموع تملأ عينيها وبدت خَجلَة من نفسها: أعلم أن جَزاء الإحسان هو الإحسان... ولكن ما لا تَعلمينَه هو أنّني ظلمتُ نفسي وظلمتُ هذا الطفل وظلمت عبد الغفور وزوجاته...

ميرفت تقترب منها وتضع يدها على كتف وجنات: ماذا تَقولين أخبريني نحن ستر وغطاء لبعضنا.

تجثو وجنات على ركبتَيها وهي تصرخ وتُولوِل وتكرّر: ظلمتُ نفسي... ظلمتُ ابني...!!

صاحت بوجهها: لن ينفع صراخك، أخبريني؟!

تمسَح دموعها وتستطرِد: بعد وفاة والدي بدأت فكهات زوجة أبي بإهانتي وضربي وإجباري على العمل ليلًا ونهارًا، كانت تُؤلف القصص والأكاذيب ليضربني إخوتي.

وبعدها تقدّم عبد الغفور من أخي بسيوني ليخطبني، وعندما أخبر والدتهُ على الفور وبدون تفكير وافقت وطلبت قطعة أرض مهرًا لي لتَقسمها على أبنائها بسيوني ومأمون، وعريس الغفلَة تاجر وكبير في السن وأقلّ ما يقدّمه أن

يشتري شبابي بحفنةً من ماله.. لقد زوجوني وذهبت لمنزله ورأيتُ الشرّ بعيون زوجتيه.. حفيظة وسنيّة.. بدأ يقدّمني لهما: سلّموا على العروسة وستّ البيت وجنات.
تجحَظ عينا حفيظة ومن هي سيدة المنزل؟! لا يوجد غيري أنا بنت عمك وأولى زوجاتك.
تستَشيط غضبًا سنية: أنا ست البيت يا عبد الغفور وبنت صاحبك الذي أنقذَك من الخَسارة أم نسيت؟
كنتُ أريدُ أن أخرج من هذه المعركة الخاسرة دون أن أخسر نفسي وقيمتها، فطلبتُ الذهاب لغرفتي.
-عبد الغفور يسحبها لغرفتها ليذبحها كما تُذبح الشّاة، أقصد لينام ويقضي ليلتهُ-
وبعد عدّة شهور من سجنهِ لي خرجت أتسحّب لكي أهاتفكِ، ذهبتُ لعبدو البقال وأعطيتهُ الورقة التي بها رقم هاتفك وبعد الانتِهاء من الاتّصال والاطمئنان عليكِ، وعند عودتي رأتني سنية وأنا أتسلّل لكي لا يَراني أحد.
سألتني سنية: لماذا أنتِ خائفة هكذا؟! ألم تخبري عبد الغفور بخروجك؟

دفعتُها بيدي لتفسحَ لي الطريق: نعم لم أُخبره
لقد خرجت لرؤية عائلتي وعدت على الفور.
تَرمُقني بنظرة مُخيفة: لن أقول لهُ فقط نظّفي
غرفتي واغسلي ملابسي.
بنبرةِ الفتاة الجبانة أجبتُها: حسنًا سأفعل ما
تأمريني بهِ.
وبعد عودة عبد الغفور في المساء أخبرتهُ وليتَها
قالت الحقيقة.. لقد كذبَت عليه واتّهمتْني
بالخروج كل يوم بدون إذنه وهي لا تعلم أين
أذهب..
استَشاط غضبًا وسألني: هل خرجتِ اليوم؟
أخبرتهُ بالحقيقة: نعم، هل أخبرتك سنيّة؟
لم يُمهِلني، هجمَ يضربني حتى سقطت على
الأرض وبدأ يركُلني بقدمه على بطني وظهري..
وفقدتُّ وعيي، لم أفِق إلا وأنا في المُستشفى.
جاء الطبيب وسألني بعد أن أفقت: ماذا حصل؟
أجبتُه: لقد ضربَني.
الطّبيب: لقد قال زوجك أنكِ سَقطتٍّ من على
الدّرج وأنتِ تحملين الغسيل.
وسألته: وأين هو يادكتور مالي لا أرى أحدًا
منهم؟

استطردَ بقوله: هم أخبروا سائق الإسعاف لم يأتِ أحد لزيارتك منذ دخولك.

بدأت أتألّم وأسأل الطّبيب: ما الذي حصل إني أشعر بألم شديد أسفل بطني؟

تغضّنَ وَجهُه: لقد أجريتُ لك عملية استِئصال للرحم، تُوفِّي ابنكِ وصار لكِ نزيف ولم أستطِع حماية طفلك أو حماية الرّحم.

نظرتُ بحزن إليه: هو أنا كنت حامل؟ ربنا يعوّضني!

- نعم كنتِ حامل منذ شهرين.. ولن يكون هناك عوض تم استِئصال الرّحم.

بنظرات الجهل: ما هو الرحم يا دكتور؟!

- هو الكيس الذي يحملُ الأطفال..

جلستُ أصرخ وأبكي، وهذا كل ما حصل في البلد...

شرعَت وجنات بذِكر قصتها كاملة لابنة عمّها: لن أستطيع أن أصبح "أمًّا " في يوم من الأيام فانتَقمتُ قبل سفري، لقد أشعلوا النّار في صدري وروحي... فأشعلتُ النّار في أجسادهم كي تُحرقَهم.

تُكمل بكاءها ونحيبَها على ما حصل: هم قتَلوا الأمومة بداخلي، لقد عشتُ يَتيمَة لم أنطِق

بكلمة "أمي" والآن لن أسمعها! لماذا تقسو علينا الحياة هكذا، هل تختار الحزن والعذاب لنا أم نحن من يختار هذا؟!

تسألها: وكيف قتلتِ عبد الغفور وزوجاته؟

تمسح دموعها بكلتا يديها وتستطرد: بعد خروجي من المستشفى لم أجد مكانًا لألجأ إليه سوى خوص بناه والدي بالمزرعة، ذهبت واشتريت قفلًا كبيرًا من عبدو البقّال وبدأت أُراقب منزل عبد الغفور إلا أن عاد هو وأبناؤه بعد صلاة العشاء وانتظرت إلى منتصف الليل وبعدها بدأت بسكب البنزين حول منزله وقفلتُ الباب من الخارج بالقفل وأشعلت النار من خارج المنزل ورميت زجاجات حارقة داخل منزله.. ولم أذهب حتى رأيتهم جُثثًا مُتفحّمة أمامي ثم غادرت المكان؛ واتّجهت للباصات ومن ثم استأجرتُ فندقًا بالقاهرة لحين حجز تذكرة متّجهة لجدة وهكذا ماتوا. وبعدَ أن علمتِ بقصّتي وأنا في البلد.. هل تَلتمسينَ لي عذرًا وتُسامحيني؟

لقد عشتُ عشرين عامًا بعيدة عنكِ وغريبة في هذه البلاد، أناسهم طيبون ويحبون الخير، لقد

ساعدوني في تربية ابني.. وهناك الآن من يريد أخذه مني.

وضعت وجنات يدها على رأسها وأجهشَت بالبكاء..

ميرفت وهي تنهرها بكل قُواها: بماذا تفكرين؟ هل ستَخطفينَه مرةً أخرى؟!

وجنات تنظر بثبات في عيني ميرفت: نعم سأستَعيده من الضّابط وأخَوَيهِ.

- هل ستُخبرينني ما قصّة الضّابط؟ وهل لراضي إخوة؟ كيف وأنتِ لا تُنجِبين؟

أخبرتها وجنات قصّة غادة وكيف تحتفظ بأطفالٍ اختَطفتْهم من الدّمام والخبر..

ميرفت بتعجّب وهي تفتح كِلتا عينيها: هل أنتم عصابة أم ماذا؟!! أين قلوبكم وأنتم تحرمون الأمهات من فلذات أكبادهن؟!

جثَت وجنات على ركبتَيها وهي تُقسم: أقسم لك أنّي لا أعلم عن خطفها شيئًا، عندما جئت أبحث عن سكن وجدت نواف وفهد معها، أخبرتني أنّ والدهما طلّقها وبعد فترةٍ من الزّمن ذهبت وأحضرت وسيم وأخبرتني أيضًا أنّ أختها توفيت وهي تُنجِبه، لقد صدّقتها، ولم أعرف حقيقتها إلّا بالمصَادفة عندما كانت تعترف

لابنها خالد، لم تكن أمّا سيّئة إلّا في عملها، أمّا في تربية أبنائها فقد كانت مكافحةً وحنونة، لم أشك يومًا أنهم ليسوا أبناءها.

ميرفت بغضب: سأساعدك ولكن حين تستَعيدين ابنك غادري جدّة وارحلي ولا تُخبري أحدًا بمساعدتي حتى لا أُسجن مرّةً أخرى.

شكرتها وجنات وقبّلت يدها ممتنّةً لها ولمساعدتها وإسداء هذه الخدمة لها والتي لن تنساها طيلة حياتها.

وفي هذه اللّحظة أصيبَت وجنات بألمٍ شديد في بطنها ولشدّة ألمها أخذت تعضّ أطراف البطانية بأسنانها، فاقترحَت ميرفت أن تُسعفَها للمُستشفى كي يكشف عليها أحد الأطباء مع تأجيل موضوع ابنها ليومين ولكنها رفضت وقالت: إنّه مجرّد مَغصٍ عابر وسوف يمضي، أنا مُعتادة عليه، ثمّ إنّني لم أعد أحتمل بُعدي عن ابني فكلّ آلام العالم لا تُوازي ألم بُعدِه عنّي، ربّتت ميرفت على ظهرها لتَهدأ: جبرَ الله قلب والدتهِ لقد رأيتها تصرُخ تلك الليلة وتتألّم، وما أشبه هذه الليلة بتلك... لا أظنّ أنّها بخير بعد فقدانها ابنها!!

وهي تصرُخ من وَجَعها: أخبرتك سابقًا، هي بخير صدّقيني، لديها أبناء آخرون وتستطيع أن تُنجب ابنًا آخر يعوّضها عن الذي فقدته...
وعندها تدخّل أيمن وأعطاها بعض المسكّنات حتى ترتاح قليلًا.
لم تكن ميرفت تعني قبولها بتصرّفاتها ولا رضاها عن عملية الخطف لقد ساعدتها فقط لأنّها أشفقَت على حالها بعد سماعها لقصّتها وكم عانت من ظلمٍ وقهر وحرمانٍ في حياتها، وأيضًا بدافع الأمومة وبقلبٍ رحيمٍ متجاهلةً القوانين والأنظمة، وعدم معرفة الحلال والحرام في قضيّة الخطف.
وضعت الاثنتان خطة لإخراج عمر من المستشفى سوف تطلب ميرفت من الممرضة اصطحاب عمر لغرفة الأشعّة وعند ابتِعاده عن الضابط وأخويه ستكون وجنات بانتِظاره.
وبعد ساعات طويلة من انتظار الضابط الخاطفة عُمر أخبر الأولاد أنّهم سيَعودون للدمام برفقة عمر حتّى يُكمل علاجه هناك بالقرب من إخوته أمّا عن القبض على وجنات فقد كلّف زملاءَه في جدّة أن يتابعوا موضوعها ويستكملوا التحقيق والبحث عنها حتى يجدوها

ويقدّموها للقضاء بعد أن سلّمهم ملف القضيّة، كما أخبر الأولاد أنّ عليه الذهاب لمكان ما يتعلّق بالقضية قبل سفرهم فطلب منهم انتظاره في المستشفى ريثما يعود.. همّ بالخروج: في المساء حجزتَ طائرة لنعود يا شباب.

بدأ الأخوة بتناول طعام الإفطار والحديث والضّحك، وهكذا حتى دخلت عليهم الممرّضة ومعها كرسي مُتحرّك، وطلبت أن تأخذ عمر الى قسم الأشعة فساعدهُ أخواه بالجلوس على الكرسي وهَمّا بالذهاب معه فرفضت ذلك وقالت: لا داعي للقلق غير أنه لا يُسمح لكما بالدخول معه ونحن سنهتم به سيعود بعد نصف ساعة لا تقلقا.

كانت ميرفت تنتظر تلك اللحظة وعندما رأت المحرضة تقود راضي الغرفة التصوير اقتربت منها وأعطتها بعض الأوراق لتأخذها إلى مكتب الإدارة وتركت راضي على الكرسي وسط الممر، نظرت له ميرفت وقالت له: لا تقلق ثوانٍ وتعود انتظر قليلًا. ثمّ انصرفت، لم يشعر عمر إلّا والكرسي يسير به بسرعة نظرَ إلى الخلف فشاهدَ امرأة مخمّرة تقوده فبدأ بالسؤال: من أنتِ، وماذا تُريدين مني أجيبي، إلى أين تأخذينَني؟!

يَلتفِت كالمَجنون يمينًا وشمالًا ولكن لا يرى من
يدفعه خرجت وجنات بهِ مسرعةً خارج
المستشفى وأشارت السائق تاكسي كي يأتي
لمساعدتها وكشفت عن وجهها وقالت لراضي:
أنا أمّك لا تقلق يا حبيبي سأخبرك
بكلّ شيء، وجودك هنا خطر.. علينا أن نرحل،
ثِق بي يا بنيّ. بهذه الكلمات أثارَت تفكير عمر
وازدادَ تَشوّشه وشَتاته فهو بين نارين هل يصدّق
الضابط ويَستَنجِد بالمارّة أم يصدّق أمّه التي
ربّته وسهرت على راحته عشرين عامًا؟ كان
مأخوذًا بما يحدث معه فعجزَ عن فعل أي شيء،
وهي لا تنفكّ تقول: أنا أمّك، لا تخف مني، هل
يُعقَل أن أوذيك؟! ما دفعَ عمر للصّمت حتى
صار في السيارة.
عرف سامي بعد التّحرّي والتحقيق أن محمد
والد عمر لديهِ مكتب يُديره له أحد أصدقائه
فذهب لهُ وسألهُ عن محمد وأين ذهب؟
عبد الوهاب وهو شريكهُ بالتجارة: لقد سافر إلى
الرياض مع عائلتهِ يا سيدي فهناك مسقط رأسه
لقد عانوا كثيرًا هنا ولم يستطيعوا احتمال ما
حصل، فقرّروا العيش بقرب أهلهم بعد
اختطاف ابنهم.

- هل تستطيع التّواصل معهُ؟
- نعم يا سيدي لديهِ تجارة هنا ... وأنا شريكهُ.
طلب منهُ الضابط أن يتواصل مع. عائلته ليخبرهم أنه قد عُثرَ على ابنهم عُمر وأنّهم سيذهبون للدّمام وزوّده بَرقمِه لكي يتواصلوا معه.
التقط عبد الوّهاب هاتفهُ: لا تعلم كم ستتغير حياتهم لقد عانوا كثيرًا فدموعهم لم تجِف منذ ليلة الحادثة.. يسجل رقم الضابط.. يتابع: وكيف حال ابنهم عمر؟ هل هو بخير؟ أعتقد أنّه أصبح في العشرين من عمره؟
سامي بريد الإجابة ولكن اتّصال نواف المُفاجئ في هذه اللحظة قد أثار قلقَه فيقطع عليهِ حديثهُ.. ردّ سامي على نواف الذي يتحدّث بصوتٍ متهدّجٍ مقطوع الأنفاس يرتجف ويتَلعثَم ثمّ يُخبره أن عمر/ راضي قد خُطِف.....
الضابط يقف بسرعة: ماذا؟ كيف حصل هذا؟ ومن خطفَه؟ أين كنتم؟
- لا أعرف يا سيّدي أرجوك أن تحضُر في الحال لا نعرف ماذا علينا أن نفعل.
يُقفل سامي الخطّ وعلى عجَل ذهب وتبعَه عبد الوهاب....

عبد الوهاب: ماذا هناك؟
لم يجبْ سامي ولكن عبد الوهاب فهم أنّ المكالمة تخصّ عمر.
"عندما يهطل المطر على أرضٍ جافّةٍ فترتوي وتغرق من كثرة شربها لمائها."
وبعد مُهاتفة عبد الوهاب لوالد عُمر نزل الخبَر عليهِ كالصّاعقة.... كيف لهُ أن يرى ابنه بعد هذهِ السنوات، كادَ أن يَطير من فرحتِه، وهو لا يصدّق، دخل محمد إلى زوجتهِ كريمة وهي تصلي بغرفتها، انتظرها حتى انتهت فجثا أمامها على سجّادتها وعيونه ممتلئة بدموع الفرح وأمسك بيدها وهي تدعو الله والدّموع تسيل من عينيها كنهرٍ حفرَ طريقَه بتَجاعيد وجهها والحزن تمكّن منها منذ سنوات فنحلَ جسدها وشحبَ لونها.
محمد يحاول الاقتراب: لا تبكي يا كريمة.. لا تبكي يا حبيبة قلبي، لن نبكي بعد اليوم!! تنظُر إليه مستغربةً طريقةَ كلامه.. يُتابع: لقد عاد عُمر!! يَجهشُ بالبُكاء: نعم لقد عاد بعد هذه السّنوات! كريمة بدهشة وتعجّب وتكاد لا تصدّق ما تسمع... تمسح دموعها بكفّيها: هل أنتَ تعي ما

تقول؟... أرجوك أنا لا أحتمل مزاحًا بهذا الموضوع!!
يقبضُ على كفّيها: صدّقيني يا كريمة.. لقد وجدوا عمر!!!
تصرخ: يا الله!!! تنظُر لمحمد: لقد استجاب الله لدعائي، وأنا أدعوه أن يعيد فلذَة كبدي لحُضني بعد تلك الليلة المشؤومة وبعد تلك السنين الصعبة المريرة.. كيف عرفت؟ ومن أخبرك بذلك؟
محمد يقصّ عليها: لقد أتى ضابط لصديقي عبد الوهاب وسأل عن منزلنا وأخبرهُ أنّهُ وجد ابننا عُمر ولكن ما أستغربهُ هو أنهُ يُريد رؤيتنا في الدّمام.
تهمُّ كريمة بالنّهوض: هل ابني هناك؟ وماذا تنتظر؟ هيا بنا سأذهب إليه ولو كان على كوكب آخر، أريد رؤيته، أشتاق لضمّهِ لصدري.. وهي تضمّ كفّيها وتتخيّل جمال اللّقاء وحلاوته..
محمد يُحاول كبحَ جِماح شوقها سأنطلق غدًا بعد صلاة الفجر ولن أعود إلا ومعي عمر غدًا سينام بين يديكِ.

كريمة بصوتٍ مُتهدّج: هل أصاب عقلك الجنون؟ ومن أين أتي بالصّبر، سأذهب معكَ اللّيلة وليس غدًا لن أنتظرَ دقيقة واحدة.
محمد يربتُ على كتفِها مُحاولًا تهدئتها: لقد صلّينا العشاء وحلّ الظّلام كيف نذهب؟ لقد كبرنا ونحتاج للرّاحة والنّوم قبل السفر.. ما رأيك أن نسافر بالطّائرة سيكون أسهل بكثير؟
كريمة وهي تلبس عَباءتها وتضع لها ملابس في حقيبةٍ صغيرة: سنذهب بالسّيارة.. لن يغمضَ لي جفنٌ بعد الآن.
حسنًا.. حسنًا.. سأتوكّل على الله وسألبّي رغبتك بالسّفر.
ودع محمد وزوجته كريمة بناتهما على أمل اللقاء بعد عودة عمر ورجوع السّكينة لقلب والدتهِ.
كريمة لبناتها: أريد منكنّ أن تزيّنّ المنزل وتشترينَ قالبَ حلوى كبيرًا سأحتفل برجعة ابني، أخبرْن الجيران وزينّ الشوارع في الحارة كلها ريثما نعود، سيبتهج منزلنا بل حارتنا، لقد زال ألم الفراق وكوابيس الاختطاف تلك.. سيعود ابني! تبكي وتضحك..

وصلَ الضّابط سامي إلى المستشفى فوجد نواف وأخاه في الخارج يبحثان كالمجانين.

- أخبراني ماذا حصل؟

قصّ فهد ما حدث على الضابط وكيف جاءت الممرضة وأخذته إلى غرفة الأشعة ثمّ اختفى..
وقال: وعندما سألتُ هذا الرّجل -ويشير إلى الحارس- قال إنّه رأى امرأة تدفع شابّاً بكرسيّه وتركبه سيارة أُجرة.

أمر سامي بأخذه لغرفة المراقبة وطلب تصوير الكاميرات الدّاخليّة والخارجيّة، فشاهد التّصوير كاملًا ولكن ملامح وجنات المنقّبة لم تظهر، ولكنّ ميرفت تظهر صورتها جليّة عندما طلبت من الممرضة ترك راضي في الممر وأعطتْها الأوراق.

سامي بصرامة: أريد الممرّضات اللواتي ظهرن في التسجيل.. أريد أيضًا تتبّع السّيّارة التي أقلّتهم أو رقم لوحتها فورًا، لقد دَبّ الرّعب والمشهد يتكرّر باختلاف الزّمان والمكان، المستشفى في حالة استِنفار، للمرّة الثّانية وجنات تخطف عُمر وتُثير الخوف والضّجيج، جميع الأمهات هناك قلقن على أبنائهنّ، ما هذه السّيّدة المريضة التي لا تخاف...

وجنات لم تعد لمنزل ميرفت بل ذهبت واستقلّت سيّارةً أخرى من الموقف لتسافر، دفعت تكلفة السّيارة لها ولابنها فقط، فهي لا تريد أن يشاركها أحد الرحلة، التفت السّائق: أين تريدين الذهاب؟

وجنات: أريد الذّهاب إلى الرّياض.

يَرمقُها السائق بنظرة: هل أنتِ مَجنونة؟ وماذا يأخذني إلى الرياض؟ أنا لا أريد الذهاب معكِ....

احمرّت عينا وجنات من الغضب وأخرجت حزمةً من النقود يبدو أنّها تفوق قيمة الرحلة بكثير ورمَتها على المقعد بجانب السائق فتبسّم لها وقال: كما تشائين يا سيّدة... إلى الرياض، على الرّغم من ارتِباكه وارتِيابه من أمرها إلّا أنه قرر الإذعان لطلبها مقابل المال.

أمّا عُمر المسكين فقد تيقّن أنها غير متّزنة وجلس خائفًا يرتجِف كفأرٍ يَنتفِض من رؤيته لها، بدت لهُ كأنها وحش كاسرٌ يُجابهُ معركةً ويريدُ الانتصار ولا تهمّهُ الخسائر، فبدأ يبكي بصمت.

بدأ سامي تحقيقاته الجديدة بقصّة خطف عمر واستَدعى كل من شُوهِد في تصوير الكاميرات..

الضابط: ما اسمك... ولماذا تركتِ عُمر في الممرّ وحده؟
المُمرّضة وهي ترتجف خوفًا: اسمي.. ساندرا يا سيدي.. لقد طلبت منّي ميرفت تركهُ كي أوصل بعض الأوراق للإدارة، وظننتُ أنّها ستبقى مع المريض لحين عودتي.
الضابط: وأنتِ ما اسمك.. ولماذا فعلتِ هذا، ولماذا لم تذهبي أنتِ لإيصال الأوراق أليس عملك؟
بارتباكٍ شديد اسمي ميرفت.. نحن يا سيدي لا نتعرّض لمثل هذه المواقف فدائمًا أكلف العاملات بإيصال الأوراق والعودة لعملهنّ.
الضابط يكرّر: ولماذا تركتِ المريض في الممرّ وحده؟ لماذا لم تذهبي بهِ أنتِ للأشعّة؟
تَتلعثَم: لقد كان لدي عمل في المكتب وأردتُ أن أُنجزه.. لم يخطر في بالي أنّ والدتهُ ستأخذه.
يقِف على قدميه: ماذا!!! والدته؟؟!! وكيف عرفتِ أنّ من أخذهُ هي والدتهُ وجنات يا ميرفت؟!
وقد عرفت أنّها تورّطت، تضَع يدها على فمِها وتتلعثَم بخطئها: لقد رأيتها عدّة مرّات تدخل وتخرج دون زيارتهِ كانت تراقب من بعيد وعندما

سألتها قالت: إنّهُ ابني وأنا أخاف من وجود الضّابط ليسَ لديّ إقامة في هذا البلد.
يقاطعها الضابط أكملي... أكملي.. فأنا مُستمتعٌ من سماع الأكاذيب.. يصرخ في وجهها: ألن تُخبريني أين ذهبت وجنات بعُمر؟ فأنتِ ابنةُ عمها ألم تُخبرك أم نسيتِ أنّني محقّق وأفهم من طريقة كلامك أنّكِ تكذبين؟!
صَمتَت ميرفت وكأنّ وجنات ذنبٌ لا يغتفر يجب أن تقع فيه كلّما ساعدتها.. تُطاطِئ رأسها مفضِّلَة الصّمت ولسان حالها يقول:
(ليتكِ سافرتِ قبل رؤية وجنات؛ وكأنّها لعنةٌ تطاردني، لقد كرهتُ عمل الخير من وراء أفكارها الشّيطانيّة).
أمّا وجنات فبعد أن فرحت بانتصارها وابتعاد عمر عن الضّابط وبعد أن قطعوا مسافةً طويلةً في رحلتهم باتّجاه الرياض، وعندما غربت الشّمس وحلّ المساء طلبت من السّائق التّوقف لكي ترتاح وتبحث عن طعام لها ولابنها في أحد المطاعم أو الاستراحات التي وُضعت للمسافرين، فهزّ السّائق رأسهُ بالإيجاب: لكِ ما تريدين يا سيدتي.

وضعت وجنات الطعام أمام عمر وبدأت تَلوكهُ بشَراهة وكأنّها لم تأكل منذ أيام أمّا عُمر الذي بقيَ غاضبًا طوال الطريق ولم ينبِس ببنتِ شفة لم يأكل ورفض أن يضع شيئًا في فمِه وقال لوالدته إنّه سيأخذ قِسطًا من الراحة فقد زاد ألم قدمه المَكسورَة من هذه الرحلة.

حاولت وجنات أن تُطمئنَهُ بأنّهم سيصلون قريبًا ويرتاحون؛ وأنها ستأخذه لتَعرضَه على الطبيب حتّى يطمئنّ قلبها.

وقف راضي مُتوثّبًا: ومن لنا في الرّياض كي نلجأ إليهِ؟ ولماذا حياة الشّقاء تلك؟

وجنات: أخبرتك سابقًا... هل تذكرُ جارتنا فوزية الّتي كانت في الدّمام؟ لقد سافرت بعد وفاة زوجها وهي تسكن الآن في الرّياض مع ابنها، وأنا على تواصلٍ دائمٍ معها، لا تَخف لقد هاتفتها ورحّبت بحضورنا وهي الآن تنتظرنا، وعندما نصل ستَستقبِلنا وتأخذنا الفندق لحين انتهاء منزلها من بعض التعديلات والترميم.

يُعاود راضي سؤالهُ مجددًا: وإخوتي نواف وفهد ووسيم كيف سأراهم ومتى سأَلتَقيهم مجدّدًا؟

وجنات بعينَين مُحمرّتين تصرخ بوجهه: سيَعودون لأمّهاتهم.

استندَ راضي على كرسيّه ودموعه على خدّهِ من الألم والحسرة، وهو يقول في قرارةِ نفسه: (وأنا متى سأعود لأمّي لقد بدأت أشتاق إلى التعرّف إليها ورؤيتها). وبعدما تيقّن أنّ وجنات تنام وتستريح بدأ يتوثّبُ مُستعينًا بالجدار حتّى اقترب من باب الغرفة وعندما دفعهُ بدأت مفاصلهُ بالصّرير لتصدر صوتًا.. فتحه على مَهلٍ ليُخفّف من صوتهِ، خرج عمر بكل هدوء ليطرق الباب على السّائق وعندما دفع الباب وجدهُ يشرب الشاي وأخذ لهُ مُتّكًا؛ فقال لهُ: أريدُ أن تعيدني لجدّة هذه المرأة خاطفَتي وعندما تُعيدني سيُعطيكَ أخي والضّابط سامي أضعاف ما أخذتهُ دعنا نذهب قبل أن تتفقّدنا، وعندما همّ السّائق بالنّهوض وجمع حاجياتهِ تَستَشيط غضبًا فسألت ابنها: لماذا تُزعِج الرّجل؟

عُمر بخوف وملامحه ذاويةٌ كمكعّب ثلج: لا أريدُ العودة.

اقترب السّائق منها: هل أنتِ حقًّا تَخطفين هذا الشاب؟!

لم تُمهلهُ ليسمعَ إجابتها، هَجمَت على الرّجل وسدّدت لهُ طعنةً في رَقبتهِ فبدأ دمهُ يَنثال من الجرح حتّى سقط قتيلًا.

وبدمٍ بارد لفّت السّكّينة بقماش وأخذتها لتُواري جريمتها وسحبَت عمر المَصدوم العاجز عن فعل أو قول شيء من تَلابيبِهِ وخرجت للبحث عن سيّارة أخرى.

وصل سامي في تحقيقاته إلى السيارة التي أقلّت وجنات وابنها من المستشفى وعندما سأل السائق أجابه بأنّه أوصلها إلى موقف السّيارات فقط ورآها تستقلّ سيارة أخرى ولكن هو لا يعرف إلى أين تتّجه، ما دفع سامي بالذهاب إلى الموقف وبدأ يسأل السائقين هناك ويريهم صورة وجنات وابنها ولكنّ أحدًا لم يتعرّف إليهما بحجّة أنّ آلاف الرّكاب يمرّون يوميًّا من هنا ولم يُلاحظوا أي شيء غريب يُثير الانتباه حتّى يتذكّروا، وبعد أن يئسوا من البحث والأسئلة، عاد للفندق حيث نواف وأخوه ينتظرانه وطلب منهما العودة إلى الدّمام وحدهما لأنّه سيُتابع الذات رحلته في البحث عن عمر ووجنات في جدّة وسيتبع أثرهما أينما اتّجها، ثمّ تذكّر عبد الوهاب فاتّصل به ليسأله إن كان قد أخبر والد عمر بالموضوع، وعندما أجابه عبد الوهاب أنه أخبره بذلك وأنهما اتّجها فورًا إلى الدّمام للقاء ولدهما .. استاء الضابط وقال:

يا ليتك انتظرت قليلًا.. لقد طرأ أمر جديد.
عبد الوهاب مُستغربًا: لماذا؟ ما الذي حصل؟
سامي: يبدو أن خاطفة عمر تمكّنت من اختِطافه مرّة أخرى ونحن تلاحقها الآن ونتتبّع أثرها... لا معلومات عنها حتى الآن ولكن أرجوك لا تُخبر والديْ عمر بما حدث.
عبد الوهّاب: لا حول ولا قوة إلّا بالله... ما هذه المرأة الشّريرة.
عاد سامي إلى موقف السيّارات لأنّه يدرك أنّ رأس الخيط سيكون من هذه النقطة أي نقطة انطلاق وجنات بابنها، بدأ بالتحقيق مع الجميع، يراجع الدفاتر والسّجلّات وأسماء السائقين في هذه النقطة، وفي هذه الأثناء دخل الشرطي مازن مسرعًا:
مازن وهو يسحب الكرسي ليجلس جاءنا بلاغ عن جريمة قتل يا سيّدي، عُثِرَ على جثة سائق تاكسي في فندقٍ على طريق المسافرين بين جدّة والرّياض.
الضابط وما دخل هذا بقضيّتنا؟
يخبرهُ مازن: جاء مع البلاغ أنّ هذا السائق كان ينقل امرأة وشابًّا قدمه مكسورة وقد اختفيا قبل اكتشاف الجريمة.

أخذ سامي هاتفه وخرج مسرعًا متّجهًا إلى موقع الجريمة، حيث كانت السّلطات هناك قد نقلت الجثّة وما زال التّحقيق مستمرًّا، اقترب سامي من صاحب الفندق وهو يريه صورة وجنات وابنها عمر، ينظر صاحب الفندق بتمعّن: نعم يا سيّدي إنها المرأة نفسها والشاب نفسه، عندما أنهيت عملي وجدت باب غرفتهما مَفتوحًا، أما غرفة السائق فكانت مغلقة طرقت الباب كثيرًا ولم يرد د أحد، ظننتُ أن الجميع قد رحلوا، فتحت الباب وشاهدت الرجل مضرّجًا بدِمائه وقد فارق الحياة فأخبرت الشرطة فورًا.

الضابط: ألم تشاهد المرأة حين خروجها؟

الرجل: لا يا سيّدي كنت أعمل ومشغولًا بالزبائن ولكن هناك موظفون في محطّة الوقود تستطيع التحقيق معهم فهم يسهَرون الليل بطوله وأعتقد أنّهم لاحظوا خروجهما.

جمع سامي عمال المحطّة وعرض عليهم صورة وجنات وعمر ولكنّهم لم يتعرفوا إليهما، حتى جاء عامل النّظافة وقال للمضابط: أرِني الصورة يا سيّدي، ينظر إلى الصورة بتمعّن: نعم أنا رأيتهما لقد كان هذا الشاب يمشي بصعوبةٍ لأنّ قدمه مكسورة ويبدو عليه أنّه مُستاء من رحلتِه

مع هذه السّيدة وبدا على تلك السيدة علامات الخوف والقلق وكانت تبحث عن سيارةٍ لتقلّها..
الضابط: وهل تعرف إلى أين اتّجها؟
العامل يحاول التذكّر: كل ما سمعته يا سيّدي جملة واحدة قالتها السّيدة أنه يجب عليهما الوصول إلى الرياض.
وعند محطة الوقود وفي تمام السّاعة العاشرة ليلًا، تحل وجنات معلنةً هبوط شرّها من جديد، قابلَت صديقتها فوزية التي رحّبت بها بكل حَفاوة وتقدير، استأجرَت لها السيدة فوزية غرفة في نزلِ المحطّة؛ معتذرةً عن عدم استقبالها في منزلها بسبب أعمال الصيانة والترميمات به فمنزلها يحتاج لبعض الترميم، وبعدها ستأخذها كضيفة الحين حصول وجنات على عمل.
سألتها فوزية: ألم يكن اسمكِ سنيّة فيما مضى؟
ترد باسمة: بلى، غيّرت غادة اسمي، أظنُ أنّهُ ثقيل على لسانها.
وبعد لحظات بدأت وجنات تصارع ألم بطنها من جديد فهرعت السيدة فوزية لتساعدها على النّهوض لأخذها للمستشفى وعلى الرغم من مُمانعة وجنات ورفضها لفكرة المستشفى إلّا أنّ

سوء حالتها جعلها مجبرةً على ترك ابنها في النُّزُل وحيدًا للذهاب إلى المستشفى مع قلقها وخوفها من فكرة هروب ابنها...

طمأنتها السّيّدة فوزية: لا تخافي على راضي فهو رجل وسينتظرنا... وقدمهُ مكسورة لن يستطيع الذّهاب معنا دعيه يرتاح في غرفته ريثما نعود.

راضي باستِياء وتهكّم: لا تخافي لن أذهب فأنتِ بارعةٌ في البحث عنّي وكأنّ القدر سلّطك علي.

تخطو وجنات بتثاقل وألم لا يحتمل أمّا فوزية فكانت تسندها وتحاول تهدئتها ريثما وصلتا إلى المستشفى.

لم يكن أمام راضي فرصةٌ للهروب أفضل من هذه فنهض بتثاقلٍ وصعوبة مُحتملًا ألم قدمِه المكسورة واستند إلى جدار السلالم للنزول والبحث عن هاتف ليُجري اتصالًا مع نواف، وبعد وصوله إلى المحطة رأى رجلًا يزوّد سيّارته بالوقود فاتّجه نحوه وطلب منه أن يُعيرَه هاتفه، ولكن لسوء حظّه كان هاتف هذا الرجل قد نفدَت بطاريته فاعتذرَ منه واتّجه الرجل إلى المتجر لشراء بعض احتياجات رحلته، فنظر عمر داخل السيارة فشاهد زوجة الرّجل فاقترب

منها وسألها أن تُعيرَه هاتفها على عجلٍ قبل
عودة زوجها:
- مرحبًا يا سيّدة أرجوك أريد هاتفك لو سمحتِ؛
فأنا في مشكلة وأريد إجراء اتّصالٍ بأخي.
مدّت السيدة يدها مقدّمةً لهُ هاتفها وهي تَرمقُه
بنظراتٍ غريبة وكأنّ شيئًا ما دفعها لمساعدته:
خذ يا بني ولكن أرجو ألّا تطيلَ مكالمتك فزوجي
سيعود بعد قليل.
أخذ عمر الهاتف واتّصل بأخيه وأخبرهُ بصوتٍ
مرتجف؛ أنّ وجنات قد أخذته عنوةً من
المستشفى.
نواف: اسمع يا عُمر شاركني موقعك وسأخبر
الضّابط سامي ليأتي ويقبض عليها... وتعود أنت
لوالدتك.
حسنًا يا أخي سأطلب من السّيّدة أن تُرسلَه.
شكر عُمر السيّدة وأعاد هاتفها وطلب منها:
أرجوكِ سيدتي أرجوكِ أن تُرسلي الموقع على
رقم أخي هذا قبل أن تذهبي.
السيدة بتعجّب: ما قصّتك يا بني؟ ولماذا أرى
الخوف في عينيك؟
قصّتي طويلة، وزوجك سيأتي ويجب أن أعود
لغرفتي قبل عودة خاطِفتي.

السّيّدة بذهول: من اختطفَك وأين هي تلك المرأة؟!
رأى عمر الرجل يعود من المتجر فابتعد عن السيارة بتثاقل ليَتوارى عن نظرِه...
وصل الرجل لسيّارته وهو يحمل ما يحتاجهُ للطّريق من ماءٍ وطعام: الآن بدأت رحلتنا يا كريمة؟
كريمة وهي ترتجف من الخوف: انتظِر قليلًا.. تُرسل موقع محطة الوقود قبل الانطلاق وطلبت من زوجها أن تكمل قيادة السيّارة لأنّ محمد بدا عليه التعب بعد يوم عمل حافل.
مُحذِّرًا إياها: حسنًا كما تشائين ولكن قودي بهدوء أرجوكِ.. منذ خروجنا وأنتِ تحثّينني على السّرعة.
كريمة تهم بالنزول لتجلس وراء عَجلةِ القيادة: لا تخَف لن أُسرِع أعدك فما تره مني هو شغف لرؤية ابني.
وصلت رسالة كريمة لنواف وأرسلها في الحال للضّابط سامي الذي لم يَغمَض لهُ جفن منذ خطفَ عمر من المستشفى، وعلى الفور اتّصل سامي بنواف ليفهم منه ما قصّة الموقع فأخبره أن عمر اتّصل به من رقمٍ غريب وأخبره أنه

مُختطف من وجنات وشاركه الموقع كي يأتوا لإنقاذه.
وعلى الفور انطلق سامي بسيارته إلى الموقع وطلب من نواف أن يُوافيه بأي تفاصيل أو أية معلومات جديدة.
ولشدّة إرهاقه وتعبه يغفو محمد أثناء الطريق بينما بدأت كريمة بزيادة سُرعة المركبة إذ لطالما حلمت بهذا اللقاء، ولكنّها وأثناء القيادة لم تَكُف عن تفكيرها بهذا الشاب وتفاصيل وجهه وخوفه أثناء المكالمة مع أخيه، وما تركه بها من أثر جعلها تتذكر ابنها ولم تكتشف أنّ هذا الفتى هو نفسه عمر... نعم لقد رأت ابنها وساعدته معتمدةً على حدسِها وشعورها وتحدّثت معه، وهنا تَوتّرت وارتبكَت وزادت سرعتها أكثر إذ إنّها كانت تتمنى أن تطير حتى تصل لابنها بسرعة وكأنّ قلبها كان يسبقها وتحاول اللحاق به للدمام..... وتحدّث نفسها: أريد رؤية ابني وحمايته من تلك المرأة وإذا رأيتها فسأقطعها إرَبًا.. إرَبًا ولن أَكتفي... لن أنسى ما فعلتْه بي لقد جرّعتني ألم حرماني من طفلي لسنوات، وكبر بعيدًا عن حضني وعن عائلته.

استيقظَ محمد على صوت المَكابح والارتِطام بشاحنة كانت أمام كريمة ولم ترَها لقد شتَّتَت ذهنها كلمة "اختطاف"...
وفي اللّحظة نفسها وضعَ عمر يده على صدره وقد أحسّ بألمٍ يعتصِر قلبه لشدّة جوعه وتعبِه وإرهاقه وما شهده من أحداثٍ مؤلمة من خطف وقتلٍ في رحلة اختطافه فوقع مغمىً عليه على مرأى النّاس الموجودين أمام النُّزُل ولم يستيقظ إلّا في المستشفى..
ما هي إلّا دقائق حتى وصلت سيارات الإسعاف والدفاع المدني لمكان الحادث، يقترب المُسعِفون ليجدوا أن المرأة (كريمة) قد فارقت الحياة أمّا الرجل فقد أسعَفوه وهو بين الحياة والموت...
أما سائق الشّاحنة فقد كانت إصاباته طفيفة.
نُقِلَت كريمة إلى المستشفى جثةً هامدة باردة لحين حضور عائلتها، ولم يُمهِلها القدر أن تحتضن ولدها صحيح أنّها رأته ولكن لم تتعرّف إليه، لقد جُمِعَت أشلاءً من مكان الحادث الذي أنهى رحلة بحثها عن ابنها وحزنها الذي لم ينقطع منذ سنين، لقد أنهى الحادث بحر دموعها التي لم تَجِف منذ ليلة اختطاف فلذَة

كبدها، وهي التي قطع روحها ألمُ فراق ابنها، وكل قطعةٍ من جسدها قد أنهكَها التّعب وأثقلها الحنين، فلا أحد يعلم حب الأم لأبنائها سواها، فالأمهات يُمارسنَ الدّكتاتوريّة في عشقهنّ لأبنائهنّ، يصعب فهمهن ولو حصل انفصال الأم عن ابنها فستتحوّل إلى وحشٍ كاسرٍ مُفترِس قادر على تَحطيم وتدمير أي عقبة في طريقه لاستعادة ابنه، والأمّ في هذه الحالة لا يستطيع أحد أن يتوقع ردّة فعلها، فالأم في عطائها كالبئر التي لا تنضَب مهما تأخذ منهَا تجود بالعَطاء..

نعم لقد توفيت كريمة، أما زوجها فهو في العناية المركّزة ينتظر مَصيرَه.

أُدخِلَ عمر المغمى عليه قسم الإسعاف حيث توجد وجنات وفي الممر رأتهُ فوزية محمولًا على النقّالة فهرعت إليه: ماذا بك يا بني هل أصابك مكروه؟!

بدأ الطبيب بالكشف عليه وطلب من فوزية الابتعاد عنه لأنّه متعب جدًّا وهو في حالة إعياء وأخبرها أنّه قد تعرّض لصدمة عصبية كبيرة وقد أعطيَ بعض المسكّنات والمهدّئات.

أخبرت فوزية الطبيب بأن والدة عمر أيضًا في المستشفى تخضع للعلاج، فصرخَ الطبيب في

وجهها أن تذهبَ إليها لتَتركه يُتابع عمله في الكشف على عمر.
دخلت الممرّضة تبحث عن فوزية إن المريضة تطلب رؤيتها على عجل، همّت بالدّخول عليها وسألتها: ما الذي أصابك أنتِ وابنك يا وجنات هل تناولتُما طعامًا ملوّثًا أو فاسدًا؟!
ما أثار فضول وجنات فسألتها بتعب وألم وصوت متقطع لا يكاد يخرج من فمها: ماذا حلّ براضي؟ هل أصابهُ مَكروه؟
تطمئنها: أتَت بهِ سيّارة الإسعاف وهو مرهقٌ قليلًا ويخضعُ للعلاج حاليًّا
حاولت وجنات أن تتَوكّأ على السّرير محاولةً النهوض لرؤية ابنها فمنعتها فوزية وطلبت منها أن ترتاح وطمأنتها أنّهُ بخير وحالته مستقرّة كي تهدأ.
أمسكت وجنات بيد صديقتها فوزية وأجهشَت بالبُكاء فالطّبيب أخبرها وبعد الفحْص وعمل الأشعة، اتّضح أنها مُصابة بمرض السّرطان وقد استشرى المرض في جسدها ولن يمهلها أيامًا كثيرة.

تفتحُ كلتا عينَيها: ماذا تقولين؟ لا بدّ أن هناك خطأ ما؟ لا يُعقل أن يعرف الطّبيب النتيجة بهذه السّرعة!!

وجنات تُخبرها: إني تَعِبَة منذ زمن وكنت أتصنّع أني بخير أمام ابني والآن اسمعيني، أشعر أن رحلتي في هذه الحياة قد انتهت، كل ما أريد قولهُ لك هو أن ابني في أمانتك ريثما تُعيدينهُ إلى أُمه.

فوزية بتعجّب: ماذا تقولين كيف هو ابنك وكيف سأعيده لأمه؟! ألستِ والدتهُ؟!!

تهزُ رأسها بالنّفي: قبل أكثر من عشرين عامًا جئت لمدينة جدّة للعمل كعاملة نظافةً في أحد المستشفيات، وذات ليلة قمت بجريمةٍ بشِعَة، أخذتُ أحد المواليد من أُمّه لعدم قدرتي على الإنجاب..

فوزية وهي تضع كلتا يديها على رأسها: ماذا فعلتِ هل حرمتِ الأم من وليدها؟

وجنات تهزّ رأسها: نعم، وهربت للدّمام والبقيّة أنتِ تعلمين بهَا، والجديد أنّ غادة أيضًا خاطفة والذين في منزلها ليسوا أطفالها وعند القبض عليها أُخذ راضي بالخطأ واكتُشفَ أمري فهربت وعدتُ لجدّة، لحق بي الضّابط وهربت للرّياض وأعتقد أنّها المحطّة الأخيرة لي من الهروب...

أرجوكِ اتّصلي وأبلغي الشّرطة عنّي وسيعود راضي الحضن أمّه.
فوزية تبكي وتنوح: كيف لي أن أتخيّل منظر أمّهِ ولوعتها أعتقد أنّ ما أصابك هو بسبب دعائها...
- هناك شيء آخر يا فوزية يجب أن أخبرك به قبل أن أموت.
- وماذا تُخبّئين من مَصائب أيضًا؟!
وجنات: تعرّفت يومًا إلى امرأةٍ توفّيت ابنتُها وكانت تريد السّفر والعودة لزوجها الذي عمل لسنواتٍ خارج السعودية بإحدى السفارات ولم يتسنَّ له رؤية ابنته بعد ولادتها، لقد أخبرتني بقصّتها وقالت: يا ليتني أحظى ببنتٍ صغيرة بدل بنتي، وهنا خطرَت ببالي فكرة شيطانية وقلت لها: أنا أستطيع أن أحضر لك طلبك.. وطلبتُ منها مبلغًا كبيرًا مقابل ذلك فوافقت، وبالفعل ذهبت إلى حديقة عامة واستَدرجتُ طفلةً وأوصلتها لتلك السّيّدة وسافرت بها إلى المغرب.
فوزية: لعنك الله... لعنك الله!! تتحرج فوزية دون النّظر للوراء والعودة لصديقتها.
- انتظري يا فوزية لا تذهبي أريد إخبارك كي تعود الفتاة أيضًا..

تخرج تحادثُ نفسها دون النظر خلفها: (ماذا فعلتُ من ذنبَ كي أُصادق أمثالك من الخُبثاء!).
وصل الضابط سامي إلى المستشفى بعد مَعرفتِه بموضوع إسعاف عمر وهو مُغمىً عليه وعندما رأى عمر الضابط يدخل إلى غرفته لم يستطع إخفاء دموعِه فأجهش بالبكاء وكأنهُ رأى طوقَ النجاة أمامهُ.
سامي يمسح على رأسه: كيف حالك يا عمر؟
الآن أصبحت بخير يا سيدي... ولكن خاطفتي هنا أيضًا.
سامي تجولُ عيناه بالبحث: أين هي؟ أريد رؤيتها يجب أن ألقي القبض عليها فورًا...
إنها تخضَع للعِلاج يا سيدي وهي في إحدى الغرَف.
خرج سامي وذهب إلى الاستِعلامات ليبحث في أسماء السجلات ويعرف غرفتها ولكن عندما دخل إليها لم يجدها، فقد هربت وجنات بعد محادثتها لفوزية، استجمعت قواها ولا أحد يعلم الآن أين ذهبت وماذا تحيك وتخطّط.
بدأ سامي يسأل ويبحث عنها: أين ذهبت المريضة هل يوجد من يدَلّني؟

الممرضة حسناء: لا أعلم يا سيدي لقد كانت مستلقية على السّرير وصديقتها كانت معها.
يسألها: هل تعرفين اسم أو رقم هاتف تلك الصديقة؟
تردُّ حسناء: لا أعلم عنها أي معلومة تفيدك يا سيّدي.
خرج سامي ليسأل عُمر: أين ذهبَت لم أجِدها؟!
عُمر وقد انتابَه الخوف والقلق من أن تَخطفهُ مرة أخرى: كيف لها أن تهرب وهي مصابةٌ بمرض قاتل، لقد أخبرتني فوزية قبيل ذهابها.. لا بدّ أنّها ستَنتقِم منّي أو أنّها تخطّط لجريمةٍ أخرى.. فقاطعهما هنا اتصال عبد الوهاب للضابط سامي...
عبد الوهّاب بنَبرةِ حُزن: لقد توفّيت يا سيّدي ولن ترى ابنها حتّى وإن وجدتهُ مرّة أخرى!!
سامي يصرخ بعُلوّ صوته: ماذا تقول ومن توفي يا رجل؟
السّيّدة كريمة... لقد توفيت وهي في طريق سفرها للدّمام لقد اصطدمت بشاحنة وتوفيت، أمّا زوجها محمد فهو يرقد في المستشفى العام بالرّياض في قسم العناية المركّزة وهو في حالةٍ خطرة.

سامي: وهو يعضّ على شفتِه: لقد وجدت عُمر
وهو الآن معي ونحن أيضًا في المستشفى العام في
الرياض... كيف سأخبرهُ الآن؟ لم أُواجِه قضيّةً
في حياتي بهذا السّوء والتّعقيد. اتّجه سامي إلى
قسم العناية المركزة ليسأل عن والد عمر
فاصطَحبَه الطبيب إلى حيث يوجد محمد وقد
كان في حالةٍ يُرثى لها، وأخبره الطبيب: إنه في
حالة غيبوبة وبناءً عليه فهو يَحتاج إلى عدّة أيام
حتى يَستَفيق هذا إذا كتب اللّه له أن يبقى حيًّا،
أمّا زوجته فهي في ثلاجة الموتى وننتظر أهلها أو
أحد أقاربها كي يأتوا ويتسلّموا الجثّة.
سامي والدّموع قد ملأت عينيه حُزنًا وألمًا ذهب
إلى عمر وساعده على النّهوض وطلبَ منه أن
يذهب معه فاصطَحبَه إلى قسم العناية المركزة
وعندما وصلا إلى النافذة الزجاجية طلب سامي
من عمر أن ينظرَ إلى الرّجل الموجود في الدّاخل
وأخبره أنّ هذا الرّجل هو والده...
صُعِقَ عمر وصرخ وقال: أنا أعرف هذا الرجل
لقد صادفتُه عندما كان يزوّد سيارته بالوقود
وطلبتُ منه هاتفه كي أتّصل بنواف ولكنّه اعتذرَ
مني لأنّ بطارية هاتفه كانت قد نفدَت ولكنني
بعدما دخل الرجل إلى المتجر اقتربت من

السّيّدة التي كانت معه وساعدتني وقدّمت لي الهاتف الذي اتصلت منه وهي من أرسلت له الموقع... من تكون تلك السيّدة؟... وأين هي؟
الضابط بحزنٍ شديد وآثار الدّهشة على وجهه: إنّ تلك السيدة هي كريمة زوجة محمد...
يقاطعه عمر صارخًا: أمي؟!!!!! أين هي؟ أريد أن أراها!! وقد بدأ يرتجِف وازداد خفَقان قلبِه..
سامي وقد أجهشَ بالبُكاء: نعم يا عمر إنّها أمك وقد كانت في طريقها لِلقائك انطلقت مسرعةً تُسابق الوقت وحدث ما حدث أثناء سفرها إليك ولكن يبدو أنّ القدر قد جمعكم في آخر محطةٍ قبل أن.. يصمت..
يتساءَل عمر: قبل ماذا؟
سامي: قبل... قبل وفاتها للأسف هذا هو قدرها لقد رأتك وحادثتْك ولم تعرف أنك ابنها ولم تعرف أنها أمّك.
عُمر يَجثو على قدمَيه لا يحتمل أكثر.. نظر للضّابط ودموعه تسابقهُ: كيف تموت قبل أن يتحقق حُلم الّلقاء، لقد صارعتُ آلام قدمي وتعذيب خاطِفتي، أملًا لِلقائها وعلى أمل أن تأتي تلك اللحظة التي أرتمي فيها في حضن والدتي كي

تُنسيني كلّ ما عانيته مع وجنات وكلَّ ما فعلتهُ بي من ظلمٍ وتسلطٍ وقسوة.
لقد عشتُ محرومًا من أمي وماتت محرومةً مني يا إلهي ما ذنبي وما ذنبها، لماذا اختارنا الله لكلّ هذه المعاناة والألم!!
سامي يمدّ يدهُ: انهَض يا بنيّ سأدعك تراها وتُقبّلها وتُلقي عليها نظرة الوداع الأخيرة قبل أن تُدفَن رحمها الله!
دفعه الضّابط بكرسيّه المتحرّك متّجهين نحو ثلاجة الموتى حيث جثمان كريمة، وعندما أقبل أحسّ ببرودة المكان وأصابتهُ قشعريرة، كاد يقفزُ قلبهُ من مكانه جرّاء ذلك الإحساس، فبدأ ينظر إليها وكأنّه ينتظر منها أن تمدّ ذراعها وتَحتضِنه ولكنّها مغطّاة بالكامل فكشف الغطاء عن وجهها ويده ترتجف، ففاضّت عيناه بالدّموع ولامسَ وجهها الجميل؛ وقبّلها على رأسها وهو يغصّ بِبُكائه حدّ الاختناق: فقدتِ ابنك بعد الولادة ببضع ساعات، وها هو ابنك يفتقدك بعد رؤيته لكِ ببضع ساعات أيضًا، أجيبي يا أمي أجيبي يا حبيبة قلبي.. ماذا نسمّي هذا..
هل هو قدر كتبَه الله علينا.. أم كتَبتْه وجنات اللعينة بعقلها الخبيث؛ لماذا رحلتِ يا أمي وأنا

الّذي كنت أتوقُ لحضنك الدافئ واتحرّق شوقًا لسماع صوتك ورؤية ابتسامتك، وأتوقُ للمَسات كفوفك، لم يكن لقائي بكِ سوى ثوانٍ لمستُ فيها خوفكِ وعطفكِ عندما هاتفتُ أخي وسألتي من خاطفتك، كنت أريد أن أشكو همي لكِ ولكن خفتُ من زوجك وغضبهِ عليك، أعدكِ بأني سأنتقم لكِ وأوصل وجنات لحبل المشنقَة فهي تستحق هذا، ارقدي بسلامٍ يا أمي!!

يغطّي وجه أمّه ويبكي بحُرقة، يسحبه سامي ليخرجهُ.

يربتُ على كتفه: لا تخَف فوالدك هنا وعائلتك ستكون موجودة لن تتجرّع ألمَ الفقد بعد الآن، سنعود للدّمام وعندما يستيقظ والدك سنأتي لزيارته.

رفض عُمر الذهاب مع سامي وطلب أن يبقى بجانب والده في المستشفى لكي ينتظر أيضًا قدوم باقي عائلته، رفضَ سامي في البداية طلب عمر ولكنّه في النهاية وافقَ مُكرهًا على طلبه مع تشديد الحراسة عليه خوفًا من عودة وجنات لخَطفِه مرّة أخرى.

غادر سامي المستشفى ووصلَ أهل عمر الحقيقيون ولا أحد يتخيّل كم كان مَشهدًا

صعبًا، فلا أحد يعرف كيف سيُعبّر عن مشاعره المضطربة هل الفرح بلِقاء عمر المَخطوف أم الحزن على وداع الوالدة المسكينة، أم الألم على محمد الغافي في غيبوبةٍ بين الحياة والموت.

***

وبعد انقِضاء مدّة سجنها؛ ودّعت جميلة النساء في العنبر السّابع، مصطحبةً معها ألم غادة مَكتوبًا على أوراق باردة علّها تبحث بين سطور تلك القصّة عن مخرجٍ يُنقِذ غادة من حبل المشنقَة، اليوم ستخرج جميلة في تمام السّاعة الحادية عشرة صباحًا، وعلى الرغم من أنّ مدّة سجنها كانت قصيرة جدًّا إلّا أنّها بلطفها وطِيبتها وحلو لسانها وكلامها الجميل ومعاملتها الحسنة قد تركت أثرًا عند هؤلاء النّساء، اقتربت جميلة من غادة وعانقتْها ووعدتها أن تتابع قضيّتها وتحاول مساعدتها بقصارى جهدها.

غادة: بأمان الله يا ابنتي ربما لن نلتقي ثانيةً اعتني بنفسك جيّدًا وأتمنّى ألا تدخلي هذا المكان ثانيةً فأنتِ لا يليق بك إلّا القصور، وأما أنا فقد تركت قضيّتي لله فهو وحده قادرٌ على حلّها وأنا مخطئة وأعترف بخطئي.

تَهمُّ جميلة بالمغادرة مُخاطبة الجميع: اعتنينَ بأنفسكنّ جيّدًا وأنا سأحاول زيارتكن دائمًا... إلى اللقاء.

جاء الوقت لتلتقي غادة بأبنائها المختطفين بعد أن التقوا بأهاليهم وعائلاتهم الحقيقية وتعرفوا إليهم وتَجاذبوا أطراف الحديث عمّا قاسوه وعاشوه بعيدين بعضهم عن بعض فكلٌّ يحمل في جَعبتِه الكثير من الأسرار والأحداث.

مرت فترة طويلة على سجنها، لقد تاقَت غادة كثيرًا لرؤيتهم ولكن في الوقت نفسه كانت تملؤها الشكوك عن ردّة فعلهم بعد أن عرفوا الحقيقة وكيف سينظرون لها بعد أن اكتشفوها.

دخلت غادة غرفة الضابط حيث ينتظرها أبناؤها، وبشوق الأم الحقيقية ركضَت باتّجاه نواف فاتحةً ذراعيها لاحتضانه إلّا أنه صدّ عنها فضمّته بينما هو يحاول إبعادها عنه، نظرت له نظرات العتَب والحب واتّجهت إلى فهد ممسكةً رأسه بكلتا يديها ولكنّه استدار لأنّه لا يريد أن ينظر في عيونها، فانتقلت إلى وسيم وقبل أن تلمسَه دفعَها بكلتا يديه فسقطت على الأرض، باتت تجيل نظرها في الأولاد الثلاثة الذين بدؤوا

يَرمقونها بنظراتٍ وكأنّهم جلّادون جاؤوا
لمعاقبتها.
تنظر لهم معاتبةً: ماذا بكم يا أبنائي لماذا هذا
الجَفاء لأمكم؟! هل أستحقّ منكم هذه
المعاملة؟!
نواف يصرخ بوجهها واضعًا سبّابته على فمه:
اصمتي.. اصمتي.. فأنتِ لستِ والدتي.. لماذا
جعلتِني أحمل اسم رجلٍ ليس والدي؟
فهد (يقاطعهُ): لماذا تقولين ابني وأنا لستُ
كذلك؟ أنا لدي أُم وطبيبة أيضًا لقد عشتُ
معكِ حياة الفقر والجهل والذّل، لقد حرمتنا من
كلّ شيء هل يَجوز هذا؟!
وسيم وقد استشاطَ غضبًا: عندما كنت أنام في
الفندق الذي جمعني مع أمي كانت تأتي وتغطّيني
وأنا نائم.. لم تُتعبي نفسكِ لليلةٍ واحدة كي تكوني
مثلها.. هكذا إحساس الأم. لقد جعتُ في منزلك
وكنت في بعض الأحيان أسرق الطّعام، كنت
أشاهد العيد وأرى منازل الجيران تعجّ بالأطعمة
والملابس الجديدة.. ورائحة الحلوى التي تملأ
المكان كانت تسرق قلبي وأنا أتحسّر كي أتذوّقها،
كان الأطفال يصرفون من النقود التي لم أرَها في

منزلك على الألعاب والمشتريات بينما كنت أتحسّر وأنا أراقبهم من بعيد.
غادة وهي تحاول النّهوض دون مساعدة أحد:
هل انتهيتم من مُحاكمتي؟ أم يوجد شيء في جعبةِ أحدكم.. لم يخطر ببالي أنّني وصلتُ إلى هذا الحدّ من التّخلي ونكران الجميل منكم، ولكن يجب أن تعلموا أنني لم أخطّط لخطفكم مُسبقًا.. لقد حُرمت من أبنائي وبقيت لعدّة أشهر وحيدةً يتملّكني وسواسي تارةً وخيالي تارةً أُخرى، أخبرني شيطاني أنّ كُل امرأة تُنجِب لديها عدّة أبناء ولا ضيرَ لو أخذتُ أحدهم، كنت أفتقد إحساس الأمومة منذ صغري رغم وجود والدتي معنا إلّا أنّها لم تهتم بي كما يجب، "وفاقد الشّيء لا يعطيه " وأمي أيضًا كانت يتيمةً، كنتُ أشكو همّي للنّاس ولا أرى سوى نظرات الشّفَقة، قبّلت الأيادي والأقدام ليكون لدي نواف ضحَّيْت بشر في الأجل زيادة الدخل لتأمين احتياجاتكم، ومن أجل فهد تعلّمت السّحر والشعوذة، وبعدما زاد عددنا وصار لدينا وسيم عملتُ.. وعملتُ لأكسب المزيد من المال وأضعه بين أيديكم، لم أحرمكم من شيء أستطيع فعلهُ، وإذا اضطر الأمر أحيانًا كنت

أستَدين المال لألبسكم ملابس جديدة.. ربّما أنتم لم تشعروا بكلّ هذا ... وهي تستمّر بالبكاء، تابعَت: ذات مرّة نواف كان يريد هاتفًا جديدًا كنت أخرج بعد صلاة الفجر خِلسةً وأجلس أمام المسجد وأمدّ يدي للناس حتّى جمعتُ قيمةَ ذلك الجهاز فقط لكي أرى نظرة السّعادة في عينيك يا نواف.. وذات يوم أخذتُ وسيم إلى المطعم الذي يحبّه ويتمنى أن يأكل فيهِ وجعلته يطلب ما يريده وقبل أن ينتهي اتّصلت بسنيّة لتُعيده للمنزل لأنني لم أدفع الفاتورة وزجّوني في السجن وقتها.. إلى أن حنّ قلب إحدى النساء التي رأت دموعي من شدّة خوفي عليكم لتركِكم وحدكم.

وفهد الذي يُحب الملابس كثيرًا، في كُل مرة أخرج للسّوق وأسرق لهُ وأخبّئ ملابسهُ تحت عَباءَتي حتى لا ينكشف أمري.. سرقتُ وأنا أعرف أنهُ حرام، وعُذري أنهُ من أجل أبنائي ربما يُغفر لي. لم أُخبركم أنّي كرهت جسدي وأعمالي وكل شيء صنعتهُ من أجلكم، وأنا لا أُنكِر خَطئي فما فعلتهُ مُخزٍ... ولكن لو كنتم مكاني فماذا ستفعلون؟! كل ذنبي وكل ما فعلته لأنني فقط

أردت أن أكون أمّا... ربما يكون لِقاءنا الأخير فأنا لا أريد رؤيتكم من بعده.
همّ نواف بالخروج دون النّظر إليها: ونحن أيضًا لا نريد رؤيتك ولا نريد تذكّر هذا الماضي الأليم والمخزي معكِ.
حملت غادة على كاهلها هموما ثِقالًا، وانصرفت وهي تجرّ ألمها وحزنها ونكران تضحياتها كما تسميها.. تندبُ حظّها... لماذا تَنكّر لها أبناؤها؟
بدأ نواف يلتقي بوالدته يوميًّا واعتاد على رؤيتها والحديث معها ومع إخوتهِ، لقد فاتهُ الكثير من القصص والمواقف لم يكن موجودًا فيها فالصّور ما زالت ناقصة، وذكرى وفاة والده هي ذكرى اختطافه لا تعلم والدتهُ كيف تقصّ ألمها فكأنها بين يدي جزّار يقطعها أجزاء، فجزءٌ ألم مَخاضها والجزء الآخر خطف ابنها، وختامها وفاة زوجها وتيتّم أبنائها، حزن نواف لحالها وهي تبكي ومسح دموع والدته وضمّها: سأعوّضك يا أمي وستودّعين حالة الفقر تلك فأنا بفضلِ الله ثمّ طليق غادة درست الله وتخرّجت وحاليًّا أعمل بشركة نفط كبيرة في السعودية سأساعدكم لأنتَشلكَم من فقركم.

أمّا فهد فالتقى أيضًا بوالدته وإِخْوته وأخبرتهُ أمّه أنّها أسمتهُ سلطان وأنّ الدنياٍ أظلمت بوجهها عند طلاقها، فقصّت سلوى على ولدها ما حدث معها: لقد طلبت منّي والدتي بعد طلاقي أن أُجهضَك فلم أحتمل طلبها ووضعت كلتا يدي على بطني مدافعةً عنك، إنّي أريدك وأحتاجكُ سندًا بعد ذلك الزّوج الّذي ضحّى بكلِّ شيء من أجل تفاهات تدور بعقله.

بحزن: ليتكِ يا أمي ضحَّيْتِ بي ورحمت حالك.

سلوى تضع يدها على فمِ ابنها لتَمنعَه من متابعة كلامه: لو عاد بي الزّمن آلاف المرات فلن أضحي بكِ فأنتَ قطعةٌ منّي ولكنّ تلك المرأة اللَّعينة حرمتني الأمومة في لحظتها، لقد تصرّفت بأنانيّة عندما خطفتك ولم تنظر للحُطام الذي خلفهُ ذلك الألم.. لم تُدرِك مدى حاجتي لكِ لو رأيتها فسأقتلها بكلتا يديّ.. ليتَهم يشنقونها عدّة مرّات بعدد بكائي وألمي كل ليلة!!

فهد: لماذا لم يأتِ أبي لرؤيتي؟ ألم يعلم أنني عدت؟

- لقد رفع قضيّةً بعد خطفك واتّهمني بأنّي أضعتُك أو بِعتك كي له أُغيظَه كُنت أقف وأسقط من محكمةٍ لمحكمة حتّى رأف القاضي بحالي وأصدر

حكمًا بشهادة المستشفى أنّ هناك عدّة حالات خطفت بالطريقة نفسها حينها لم نعُد نراه..
وعندما أخبره أخي بأنّك عدت مجدّدًا؛ ردّ بأنّهُ لا يحتاجك فلديه أبناء آخرون.
فهد بكل حزن: وأنتِ أيضًا لديكِ زوج وأبناء ألا تَحتاجِينني؟
تمسَح على رأسه: أنت ابني أيضًا وأحتاجك سندي، فعمري الذي مضى بدونك كان ناقصًا، كُنت أفتقدك.. وهؤلاء إخوتك يحتاجونك أيضًا.
اقتربَ أخوه سامر منه: لقد كانت والدتي تقصّ علينا قصّة اختطافك ولم نستوعب حينها أو نصدق، فالعقل يا أخي لا يستوعب كيف لامرأة أن تسرق طفلًا من أحضان أُمه.
فهد: صدّق... صدّق.. يا سامر فأنت لا تعرف غادة، لا شكّ أنّها مصابة بمرضٍ نفسي أفقدها السّيطرة على تصرّفاتها ولولا خالد ابنها لما انكشفَ أمرها.
بعد قدوم عائلة وسيم ولقائه الذي كان مَشهدًا مُؤثّرًا طلبوا منه أن جر ذهب معهم إلى منزل العائلة، تردّد في البداية وشعر بالحرَج فعلى الرغم من أنهم عائلته الحقيقية إلّا أنّه وللحظة

شعر أنه سيكون عِبئًا أو ضيفًا، فهو لشدّة حساسيّته قال لهم إنّه لا يريد أن يغيّر روتين حياتهم وترتيبها، فأجابته والدته: كيف تقول هذا يا بني؟! لقد انتظرنا هذه اللحظة منذ سنوات لا تقل هذا الكلام أرجوك لقد أمضيت حياتي بالتضرّع والدّعاء ان والاستغفار وطلب الرحمة من الله كي يَجبر خاطري ويجمعني بك.

لم تجف دموع فرح منذ لحظة اختطاف ابنها ولكن الفرق كانت سابقًا دموع حزن أما اليوم فهي دموع الفرح بعودته، وبدأت فرح تقصّ قصّتها على ابنها: لقد أسميتك سلمان وكنتُ سعيدةً برؤيتك بعد انقطاع سبع سنوات من الإنجاب، ورأيت بولادتك ثمرةَ دُعائي ورجائي بأن أُنجبَ ابنًا ليكون مصدر سعادة لعائلتنا.. ولكن للأسف لم تكتمل فرحتي بولادتك وتبدّد حلمي وكان اختطافك مصدر تَعاسةٍ وقلقٍ مستمرين.

عندما دخلت تلك المرأة، لم أكُن مرتاحةً لها ولكنّها خدعتني بلِباسها وحنيّتها عليك وفي غَمضةِ عين توارَت عن الأنظار وبدأ عذابي وكأنك وحيدي، فالأم يا بني تفرح بالزّيادة وتموت بالنقصان، لقد هرمتُ وحزنت كثيرًا.

التفتَ وسيم لوالده: عندي طلبٌ يا أبي... من الممكن أن أغيّر اسمي ولكن لا أريد أن أغيّر ديني، كما علمت يا والدي أنّكم من الشّيعة وأنا من السّنّة ومُقتنع بديني وتربّيت عليه.
ربّتَ والده على ظهره وقال: نحن لا نُجبرك يا بني فهذا دينك وأنت تربّيت عليه وأَحببتَه، ونحن في دولةٍ ولله الحمد تمتاز بالحرّيّة في الأديان.
وفي المستشفى الذي يقيم فيه عمر ووالده وفي اليوم التالي لسفر الضّابط إلى الدّمام، تأتي عاملة النظافة لتمسحَ الأرض وتنظّف الممرات وتعقّمها، وفي الوقت نفسه تسترق النّظر إلى عمر الذي يجلس على كرسيّه باكيًا حزينًا، وبما أنّ الضّابط قد شدّد المراقبة والحراسة على عمر فكان من الصّعب على وجنات المتنكّرة بملابس عاملة النّظافة أن تقترب أكثر منه أو أن تَجرُؤ على اختِطافه، لقد ظهرَ عليها الإعياء الشّديد وبدَت متعبة ومُرهقَة فقد هدّها الألم وانتشر الشّحوبُ في وجهِها، وهي تحدّث نفسها: لن أتركَ ابني هنا... نعم إنّه ابني... سأخطفه للمرّة الأخيرة وأهرب به خارج هذه البلاد كلّها... إنّه ملكي... فأثار ارتباكها وحركاتها المريبة شكوك

الحارس الذي تصرف بكلّ هدوء وعقلانية، فابتعدَ قليلًا عن المكان كي يتّصل بسامي ويخبره بشأن هذه المرأة دون أن يلفتَ انتباهها.
سامي في هذه الأثناء كان يرحّب بجميلة التي زارته اليوم في مكتبهِ كضيفة، أو بالأحرى جاءت إليه لتسأله كصحفية عن تطوّرات قضيّة عادة، وما إذا كان بإمكانها أن توكّل محاميًا للدفاع عنها، فجميلة كأنثى تستطيع أن ترى القضيّة من ناحيةٍ إنسانيّةٍ فقط، ولكنّ سامي يستغرب من طلبها ويخبرها أنّ غادة معترفة بكلّ ما قامت به من أفعال، حتى أولادها الذين ربّتهم انكّروا لها ورَفضوا أن تكون بينهم أو أن يكونوا تحت وِصايتها فجميعهم عادوا إلى عائلاتهم وينتظرون حكم القاضي عليها فقط يعني أنّ هذه القضيّة منتهية ولا بدّ من عقاب من يقوم بالخطف حتّى نحدّ من هذه الظاهرة البشعة في مجتمعنا.
جميلة: أنا متعاطفةٌ معها يا سيّدي ثمّ إنّ الأشياء من قواعدها يعني لا تنسَ الظروف التي مرّت بها غادة والظلم الذي تعرّضت له في حياتها والذي كان هو السبب الرئيس في تفكيرها بالقيام بعملية الخطف، إنّها لم تخطف الأولاد بغيَة التجارة بهم أو بيعهم، كل ذنبها يا سيّدي

أنّها تدافع عن أبسط حقوقها كأنثى بأن تكون أمًّا، ثمّ إنّني أتعجّب من أولادها كيف ينكّروا لها بعد كلِّ تلك التضحية لأجلهم، وبغضّ النظر عن طريقة حصولها على الأولاد إلّا أنّها أفنَت حياتها في تربيتهم والعناية بهم، إن كنتم ستعاقبونها على ذنبها بخطف الأولاد فعليكم أن تُكافئوها على رعايتها لهم والاهتمام بهم وتربيتهم طوال هذه السنين.

- لو سألتُك يا جميلة فهل تُجيبين بصدق؟
- تفضّل يا سيّدي.

ينهض ليجلس أمامها: لو أنكِ أنتِ مكان أحد هؤلاء الأولاد أي لو أنّ غادة خطفتكِ وربّتكِ وحرمتكِ من التّعليم ومن العلاج وعشت معها في فقرٍ وحاجةٍ وانتُهِكَت أبسط حقوقك ورأيتِ مناظر مُخلّة تحصل أمامكِ وبعدها عثر عليكِ أهلك، فهل تسامحين خاطفتك وتدعينها تعيش بين البشر دون جزاء وحساب؟

صمتت قليلاً: لا لن أُسامحها، لقد حرمتني حياتي الطّبيعيّة ولكن أنا شخصيًّا لا أنظر إلى نصف الكأس الفارغ فقط.

يعود ليجلس على كرسيه: هذا رأيك في كل الأحوال تستطيعين متابعة القضية عن بعد، أمّا

أنا فالفاصل عندي هو حكم القاضي وتطبيق القانون. يرنّ هاتفه...
الضابط: نعم... ماذا؟ كنت أتوقّع أن تعود تلك الخاطفة للمكان كي تنقضّ على فريستِها مرّة أخرى... شدّدوا الحراسة جيّدًا ولا تدعها تختفي عن أنظاركم سوف أنطلِق باتّجاهكم فورًا....
لفتَت انتِباه جميلة كلمة (الخاطفة) فأدركت أنّ الموضوع متعلّق بغادة ووجنات، فطلبت من الضابط أن تُرافقَه في مهمّته بالقبض على وجنات ولكنّه رفض ذلك لأنّ هذا الأمر غير قانوني ولا يريد أن يتحمّل مسؤولية جميلة أو أن يعرّضها للخطر، إلّا أنها أصرّت عليه كل الإصرار واعتبرت نفسها جزءًا من القضيّة، وأبرزَت له حينها كتابًا رسميًّا من مؤسّستها لمتابعة القضيّة بشكل رسمي، مما اضطر الضابط لاصطحابها معه فانطلقت برفقة الدّورية إلى المستشفى حيث هو عمر.
في هذه الأثناء تتابع وجنات عملها بتنظيف الممرات منسحبةً على مهل بشكل تكتيكي بعد أن شكّت بالإبلاغ عن وجودها من قبل حارس الأمن فدخلت إلى غرفة خالية من المرضى في القسم نفسه، وما هي إلّا دقائق خرجت من تلك

الغرفة وأغلقت الباب بشكلٍ طبيعي وابتعدت عنها، وبعد قليل اختفت عن أعين حارس الأمن الذي تبعَها مُسرعًا إلّا أنّه تفاجأ بدخانٍ يخرج من الغرفة نفسها التي دخلتها وجنات، فقد افتعلت حريقًا في تلك الغرفة وبدأ يَتكاثف الدخان وألسِنة اللّهب بدأت تملأ المكان فهرع الجميع لإطفاء النيران في تلك الغرفة وأثار الموضوع فوضى في المكان فالكل يركضون محاولين إنقاذ الغرفة متوقّعين وجود أشخاص فيها، كانت خطّةً شيطانية من وجنات التي استغلّت هذه الفوضى والدّخان الكثيف الذي ملأ الممرّات واتّجهت إلى عمر الموجود على كرسيّه ودَفعتْه أمامها ولكنّه لم يرَ من الذي يدفعه فقد كان همّه الابتعاد عن كثافة الدّخان في المكان، دخلت به إلى غرفة خالية من المرضى، أوصدَت الباب من الداخل، وهنا كانت صدمة عمر بما رآه، كأنّه لأول مرّة يرى وجنات، شكلها مخيف كمُجرمة، فقد كانت شاحبة وعيناها جاحظتَين، يداها تَرتجفان، تتصبّب عرقًا، وكاد أن يسمعَ نبضات قلبها وهو بعيد عنها.

وجنات: اشتقتُ إليك يا ولدي!

تُحاول أن تَحتضنَه..

يصرخ: أنا لست ابنك... ابتعدي عنّي... أنا أكرهك... أنتِ مجرمة... يجب أن تَنالي عقابك!

- أرجوك اسمعني يا بني... أنا لم آتِ إلى هنا كي أختطِفك... أنا جئت لكي...

يقاطعها: أنتِ كاذبة... أنانيّة... لقد حرمتني من عائلتي... اختطفتِني... جعلتِني أعيش معك أقسى الظروف حرمتني من أدنى حقوقي وآخر المَطاف كنتِ سببًا في موت أمّي الحقيقية لقد حرمتِها مني عندما ولدت وحرمتِني منها عندما وجدتها.

- كيف ماتت أمك؟ ياولدي.

- حادث سير... لقد كانت في طريقها للقائي أمّا أبي فهو ما زال في العناية المركّزة بين الحياة والموت وربّما لن يمنحني الله فرصة عناقه أو قصة أن أناديه بكلمة أبي.

حاولَت أن تتصنّع الحزن: لا حول ولا قوّة إلّا بالله رحمها الله...

لقد شعرت وجنات أنّ موت أم عمر قد يَمنحها فرصةً أخيرة للاحتفاظ به مجدّدًا إلّا أنّ عمر قطعَ عليها تلك الأفكار: أنا أعرف بمَ تفكّرين، فمجرمةٌ مثلك لا يمكن لها أن تُضمِر الخير لإنسان، ثِقي يا وجنات أنني أفضّل أن أعيش في

الشارع وحيدًا على أن أكملَ حياتي معك، بل أفضّل أن أموت على أن تكوني أنتِ أمّي.
وجنات وقد استَشاطَت غضبًا: اخرس... أنت لي وحدي... أنا من ربّيتك.. أنا من تعبت وسهرت الليالي على راحتك.. لقد أفنيتُ عمري وأنا أحاول الاحتفاظ بك.. لم أتوقّع يومًا أن تتنكّر لي ولفضلي عليك!!
بدأت تَسوء حالة وجنات وعلامات الانهِيار بدأت تَزداد...
مُحاولًا دفعها والابتعاد عنها: عن أيّ فضلٍ تتحدّثين!!
تُقاطِعه: إن كنت تفضّل الموت فسنموت معًا... عشنا معًا وسنموت معًا.
جَحظَت عيناه: ماذا تقصِدين يا مجرمة؟
أخرجَت وجنات زجاجةً من المواد المُشتعِلة وبدأت ترمي به على الأثاث الموجود في الغرفة، أمّا عمر فقد نهض عن كرسيّه ومشى متثاقلًا بقدمه المكسورة مُحاولًا إيقافها أو مَنعها، فسكبَت السائل المُشتعل على ثيابها وثيابه.
- توقفي عن هذا أيّتها المجنونة!!
كان عمر يحاول ثنيَها عن قرار إحراقه...

جميع من في الخارج مشغولُون بإطفاء الحريق وطَرد الدّخان خارج المكان، أمّا الحارس الذي اكتشفَ اختفاء عمر مجددًا فقد اتّصل بالضابط سامي الذي شارف على الوصول وأخبره بذلك فطلب منه سامي طلب قوّة ومُؤازرَة للإحاطة بالمستشفى ومنع خروج أي شخص منه دون الكشف عن هويته والتحقق منه.

وصل سامي برفقة جميلة إلى المستشفى واتّجها برفقة الجنود المرافقين إلى القسم الذي نشبَ فيه الحريق حيث كانت النيران قد بدأت تَخمَد وبدأ البحث عن عمر في أرجاء المكان، انتبهَت جميلة إلى غرفةٍ في آخر الممرّ وكان الدخان قد بدأ يتَسلّل من تحت باب هذه الغرفة، فهرعَت تنادي الضابط الذي اجتمع مع جنوده وكَسروا الباب، ليَجدوا عمر مغمىً رول عليه ووجنات بحالةٍ يرثى لها حيث بدأت النيران تلتهم أقدامها وهي في طريقها للإغماء، وعلى الفور أُخرجت وجنات وعمر ونُقلًا إلى قسم الإسعاف وسُيطِرَ على الحريق.

انتظرت جميلة قليلًا على باب غرفة الإنعاش حتى أذن لها الطبيب بالدخول هي والضابط لرؤية وجنات، اقتربت جميلة من وجنات بحذرٍ

شديد وكأنها تقترب من وحشٍ كاسر ولم تعرف جميلة سبب الخوف الذي اعتَراها حينها، كل همّها أن تعرف الأسباب الحقيقية التي دفعت وجنات الفعل كل ما فعلته من خطفٍ وقتل وحرق.

تسألها جميلة بصوتٍ خافت: إذًا أنتِ خاطفة عمر؟!

وجنات تنظر إليها وهي لا تكاد تَتنفّس: من أنتِ يا هذه؟ وماذا تريدين مني؟

- أنا جميلة صحفية وناشطة في مجال حقوق الإنسان أنا أتابع قضيّتك أنت وغادة وأحاول معرفة الأسباب التي تدفع النساء في مجتمعنا لارتِكاب مثل هذه الجرائم علّنا نُصلح أيّة ثغرَة في المُستقبل... أريد أن أعرف لماذا خطفتِ عمر؟

وقد أدركت أنّها على بعد دقائق من نهايتها الأبدية قررت أن تبوحَ للمرّة الأخيرة بقصّتها، فقالت بنفسٍ مُتقطّع: لقد حرمتْني الحياة من أبسط حقوقي وقسَت علي، فمنذ ولادتي لم أجِد سوى زوجة أب تكرهني بدون سبب، وبعد وفاة والدي زوّجتني برجلٍ يكبرني سنًّا ومن هنا حرمت الأمومة، لقد ضربني وقتلَ ابني قُبيل معرفتي بوجوده، أُجريَت لي عملية استِئصال

للرحم، وأخبرني طبيبي، بأني لن أكون أُمًّا في يومٍ من الأيام.. سألتهُ: لماذا؟ فأجاب: لقد نزفتِ وأنتِ حامل وبمُكوثك ليلة كاملة تَنزفين فسدَ كلّ شيء داخلك واستخرجتُ ابنك والرّحم الذي يحملهُ.. انتقمت... نعم انتقمت بعد خروجي وأحرقتُه بالنّار كما أحرقَ جَوفي وهربت بعدها وأردت أن أعيش حياة طبيعية، ولكن شَبحَ الأمومة بقيَ يُلاحقني خاصةً أثناء عملي في مستشفى الولادة والأطفال فقد كان يذكّرني بعجزي ونقصي كلّما رأيت أمًّا وهي تحملُ طفلها في أحشائها ثمّ تتألم لتضعهُ ثم تُسعد بهِ.. جعلني هذا الشعور أصاب بالجنون أموت ألف مرّةٍ.. ومرّة.. لأجرّب هذا الإحساس، إلى أن قابلت والد عُمر وعندما دخلت على كريمة.. نعم كان اسمها كريمة وجدتها سعيدةً بوجود طفلها بين يديها وهي تحملهُ وعرق الولادة يتصبّب منها.. وبدون تفكير راقبت المكان إلى أن هدأت الحركة في المستشفى فتسلّلت وحملتُهُ بخفّةٍ وهربت ولا أعلم ماذا تركتُ خلفي من مصائب.

بدأت وجنات تتألّم وتصرخ حتّى أتى الطّبيب ليسكت آلامها بالمهدّئات، فنظر سامي إلى جميلة وسألها: هل اكتفيتِ؟

هزت جميلة رأسها بالنفي: لم أكتفِ، أريدها أن تُكمل.

وجنات وهي تُزيل كِمام الأكسجين: كنتُ أريد أن أسرق إحساس الأمومة، فكرت كثيرًا بأنّي سأهرَم وأكمل باقي حياتي في دارِ المسنّين أو تحت رعاية أحدِ المحسنين، أردتُ تربية طفل كي يناديني "أمي" ويكون سَندًا وعَونًا لي في المستقبل..

تضحك وتبكي: آااه من المُستقبل!!

جميلة تقتربُ منها: ألم تشعري أنّكِ أخطأتِ؟

وجنات تشخص ببصرها: لا لم أخطئ، عندما يولد الأطفال ويتعرضون للذّئاب البشرية يجب على الأمّهات حمايتهم.. وعُمر ابني ولن يأخذهُ أحدٌ منّي سوى الموت.

دخل عُمر بمساعدة إحدى الممرضات بعد أن استفاق ليرى ماذا حلّ بوجنات: ولماذا هذه الأنانيّة؟ لقد أصبحتِ مثل الوحش تَقتُلين وتحرقين وتدمّرين بدمٍ بارد... أتعلمين أين الأمان يا أممم، أقصد يا خاطفتي المجرمة؟

تنظر لهُ وجنات بازدِراء...

صرخ عُمر بوجهها الأمان بقتلك أو سجنك مَدى الحياة.
الضّابط سامي يقترب منها وما قصّة الطفلة التي اختَطفتِها في الحديقة؟ لقد أخبرني عمر أنّه شاهد هذه العملية ولكنّه كان طفلًا حينها، أخبريني بالتفاصيل أين هي هذه الطفلة؟ أين ذهبتِ بها؟ يجب أن نُعيدها لأهلها.
وقد بدا عليها التّعب وكأنّها تلفِظ أنفاسها: نعم هذا صحيح... لقد كان ذلك قبل عدّة سنوات... اختطَفت طفلةً من حديقةٍ عامّة...
الضابط: أكملي... أكملي...
وجنات لا ترد...
تدخل فوزية: أنا أُكمل يا سيّدي...
من أنتِ؟
أنا فوزية صديقتها وقد أخبرتني عن تلك الفتاة.
أخبرت فوزية الضابط بقصّة الطفلة وكيف اختَطفتْها وجنات من الحديقة.
عُمر يقاطعها مُخاطبًا وجنات: نعم أذكر هذا اليوم أخذتني للحديقة وكنت تَطلبين أن أستدرجَ الفتاة باللّعب بالكُرة وفعلت.

حدّقت بهِ وجنات: نعم... فعلتها وساعدتني باختِطافها وهي الآن في المغرب مع والدتها الجديدة.
سقطَ عُمر على قدمَيه واضعًا يديه على رأسه وهو يبكي: لعنكِ الله لقد تسبّبت بألم تلك الأم... أتذكر صراخها إلى هذا اليوم وكيف كانت تُهروِل كالمَجنونة هي وزوجها وتتوسّل الزوّار الحديقة بالبحث معهما!!
جميلة تضع يديها على فمِها وصاحت بوجهها: وَيحكِ يا امرأة... إنّ غادة أمامكِ ملاك وأنتِ شيطان رجيم، ما ذنب والديها تتَوهُ ابنتهما وأنتِ تبيعينها!!
وجنات وقد بدا عليها آثار الجنون ربّما الحاجة دفعتني أو ربّما كرهت رؤيتهما سعيدين ومعهما طفلتهما.
يُطبِق سامي بيديه على رقبتها: ليتَك توفيتِ قبل إلحاق الضّرر بتلك العائلة أيضًا!!
بكلّ صعوبة جميلة تُحاول أن تُبعِده: اترُكها يا سيّدي أرجوك.
دَعيه يرِحْني بالموت فقد انتصرتُ الآن... وحربي انتهَت.

عُمر يسأل سامي: هي على أي جبهةٍ تُحارب؟
وعلى من تريد أن تنتصِر؟
وجنات تُمسِكه بيدها.. يخاف عُمر ويجزَع...
تسحبهُ ليقترب منها كثيرًا: الحرب شُنّت على زوجةِ أبي وزوجي وزوجاته، وأمّك كريمة وزوجها الثريّ محمد، وعلى غادة أيضا تلك المُتباهيَة بأبنائها.. إنّي أكرههم جميعًا!!
بدأت وجنات بِكلّ صعوبة تُصارع سَكرات الموت.. وتطلب من عُمر أن يسامحها لقد بدأت تخوض معركتها مع ملك الموت.. إلّا أنّ عمر رفض مُسامحتها ونهرَها: اذهبي إلى الجحيم!
"يُطبقُ القدر أضلاعه على وجنات... وتموت."
بكَت جميلة من هولِ ما رأت من شرّ تلك المرأة حتّى النّفس الأخير أمّا عُمر فسقطَ على الأرض مُحاولًا تنفّس الصّعداء وبدأ تارَةً بالضّحك بشكلٍ هيستيري وكأنّه أصيب بصدمة بوفاتها وتارةً يبكي من خوفه منها ربّما؛ فلا نعرف لماذا يبكي هل لأنه حزينٌ على فراقها أم يبكي على حياته التي ام أمضاها معها أم أنّه يضحك فرحًا بخلاصِه منها... مشاعر كثيرة انتابَت عمر في تلك اللحظة حتى شعر بالدوار وأغمي عليه ثانيةً ونُقل إلى سريره لكي يرتاح.

وبعد عدّة ساعات جاءت الممرضة إلى غرفة عمر لتبشّره بأنّ والده قد استفاقَ من غَيبوبتِه واصطَحبتْه معها إلى غرفة والده حيث كان قد خرج من قسم العناية المركّزة.
عندما دخل عُمر لغرفة أبيه حيث كان أخوته يلتفّون حوله، نظر لهُ من بعيد فسألهُ محمد سؤال العارف من أنت يا بنيّ؟
عمر ينظر إلى والده ودون أن يُجيب تنهمِر الدّموع من عيونه.
فتح محمد ذراعَيه تعال... تعال يا فلذةَ كبِدي!
أسرعَ عمر بكرسيّه ونهض عنه وارتَمى في حضنِ أبيه وكأنّهُ حلمَ بهذا اللقاء من قبل.. وبدأ الجميع يبكون بحُرقة.
محمد: آااه يا عمر أشعر بأنني أحلم... لا أصدّق كل ما حدث معنا... أشعر بأنني أستفيق من حلمٍ أتعبَني وأثقلَ كاهلي... توفيت والدتك من أجل هذا اللقاء.. آآه يا كريمة!!
عمر بوَجهٍ باكٍ: كنت أتوقُ لرؤيتها معك حلمتُ أن أضمّها منذ اللحظة الأولى التي اكتشفتُ فيها حقيقتي.. آااه يا أبي إني أشتاق لحضن أمي، لقد حرمتنْي خاطفتي من حضنها.. وجعلتني أعيش

لهفة رؤيتها، وعندما علمتُ بوفاتها تقطّع قلبي حزنًا عليها.. أعتقد أنّ الله لا يحبّني!
محمّد يحاول إسكاته: لا يا بني لا تقل هذا، إنّ الله إذا أحبّ عبدًا ابتَلاه..

***

فُتِحَ باب العنبَر السادس لتدخل جميلة فبالُها مشغولٌ على غادة غير أنّها تريد أن تأخذ منها بعض المعلومات، كانت حالة غادة وقتها تبدو أسوأ بكثير ممّا كانت عليه سابقًا فحلمها بالأمومة انتهى بعد أنكّر أولادها لها ورفضهم لوجودها في حياتهم، هو شعورٌ بالخذلان تعيشه غادة، فكلّ الأشياء التي تعتبرها تضحية طوال حياتها لم يرها أولادها إلّا وصَمات عارٍ وذلّ لوّثت حياتهم... قررت غادة أن تكون وحيدة حتى في سجنها، فابتعدت عن محادثة أيّ أحد، وكانت كلّما دخلت سجّانة إليهنّ أو سمعت صوت باب الزّنزانة يُفتَح كانت تهرَع إلى الزاوية وتنطوي على نفسها وتبدأ بالارتِجاف والخوف ظنًّا منها أنّ حكم القاضي قد صدر بحقّها وأن السجّانة ستَصطحِبها إلى الإعدام.
اقتربت جميلة منها وسألتها: كيف حالك يا أم خالد؟

غادة نظرت إليها بتعجّب: لماذا أتيتِ؟
- جئت لكي أراكِ.
- وهل نحن في فندق متى ما أردتِ رؤيتي سَمحوا لكِ؟!
تُمسِك يد غادة: لقد أرسلني الضّابط سامي كي أسألكِ عن فتاة خطفتْها وجنات.
- أية فتاة تتحدّثين عنها؟
تُخبرها جميلة: لقد توفّيت وجنات؛ وقبيل أن تلفظ أنفاسها اعترفت بخطف فتاة كانت تلعب في الحديقة وعمرها ثلاث سنوات تقريبًا.
وقد بدأت تبكي ربّما على موت وجنات... ثُم تَنفي ما سمعتهُ: لا لم تُخبرني بشيء من هذا..
أُريدُ منكِ خدمة هل أستطيع محادثة خالد؟
أخرجت هاتفها تفضّلي هاتفي وأجري اتّصالًا منه.
غادة أخذت الهاتف واتّصلت: خالد أين أنتم يا بني وأين هي أختك؟!
يُجيب خالد بتذمّر: ماذا تريدين؟ ولماذا تسألين عن حالنا؟
وهي تبكي وتَتوسّل: أريد رؤيتكما غدًا؟ أرجوك يا بني.
- سنأتي ولتكن آخر زيارة لنا... يا أمي.

وبعد مرور أسبوع أقنع خالد أخته سحر بالذهاب معهُ لرؤية والدته في السجن فقبلَت سحر بعد إلحاحٍ شديد من أخيها.

جلسا أمام والدتهما مُطأطئين رأسَيهما حاولت غادة أن تقبّلهما ولكنّهما لم يَستَجيبا لها.

غادة (بحزن): لماذا هذا الجَفاء يا ولدَيَّ؟

خالد بكّل حزن: أنتِ السّبب يا أمّي لقد عانينا من وحدتنا وعِشنا كأيتام الأم مع والدنا انتظرنا أيامًا وليالِيَ كثيرة نحلم بالعودة إلى أحضانك، تحدّينا والدنا وأصبحنا نزورك دون علمه، عدنا لكِ بكلِّ شوقٍ ولهفةٍ لأحضانك، ولكنّنا للأسف لم نجد منكِ سوى الفضيحة والعار الذي يُطاردنا فقرّرنا أن نعود أيتامَ الأم كما كنّا أفضل لنا من أن نعيش مع أمّ...

يصمت خالد، تقول سحرَ (بحنق): بعد أشهرٍ من زواجي طلّقني زوجي بحجّةِ أنّ والدتي خاطفة ويا ليتها كانت خاطفةً فقط.. ما هو ذنبي يا أمي كي تُهدَم حياتي بسببك؟! لقد كان زوجي رجلًا رائعًا أحببتُه من كلّ قلبي وهو أحبّني أيضًا، بنَينا أحلامنا معًا وقبل أن نبدأ بتَحقيقها جئتِ أنتِ لتُفسدي كلّ شيء.

وضعت غادة كلتا يديها على وجهِها وأجهشَت بالبكاء لا تحمل إجابة، فانصرفَ ابنها وابنتها وطلبًا منها طلبًا أخيرًا قبيل انصرافهما: "أمي" انسَي أنكِ أنجبتِ ابنَين...

كانت هذه الجملة كصفعةٍ على وجه غادة ولو أنّها سمعت بأذنها حكم القاضي عليها بالإعدام لكان أهون من هذا، عادت غادة كالسّابق وحيدةً خاليةَ الوفاض ولكنّها أصبحَت في عمرٍ لا يسمح لها أن تفكّر بأية جريمة أخرى، وأيّامها أصبحت في هذه الدنيا مَرهونةً بحكم القاضي، لقد بهتتْ ألوان الحياة في نظر غادة، وأكثر ما تتمنّاه الآن هو أن يصدر حكم القاضي عليها في أسرع وقتٍ ممكن لينهي به قصّة معاناتها وألمها.

دخل سامي عليها وسألها: ما بالكِ تبكين؟

غادة بصوتٍ متهدّج: ابنيَّ لا يُريدان رؤيتي مجدّدًا وأبنائي الآخرون لا يريدون أيضًا، فقد عاد كلٌّ منهم إلى عائلته، ما هو ذنبي يا سيدي؟ أنّني خاطفة؟ ولكنّني كنتُ أمًّا لهم؟ هل تحوّل حقّي بالأمومة إلى ذنبٍ لا يغتفر منكم ومن أولادي ومن المجتمع؟

سامي: ذنبك هو تركُ نفسكِ لشيطانك يقودك إلى المعاصي يا غادة، عودي إلى زنزانتك

واستغفِري ربّك، فلا يوجد لكِ ملجأ الآن سوى الاستِغفار.
غادة وهي تهمُّ بالمغادرة تسأل: وهل سيغفر لي وأنا من عصيتهُ ليلًا ونهارًا؟
الضابط: هو خالقنا ورازقنا ويغفر الذّنوب.. ولا تعلمين ربّما ما كنتِ بهِ طوال تلك السّنوات هو اختبار.
غادة بتعجّب: اختبار؟ لماذا؟
اختبرك لتَلجئِي لهُ ويعيد أبناءك ولكنّك فضّلتِ الطّريق الخطأ وخطفتِ أبناء آخرين.
غادة محاولةً الدفاع عن نفسها: إنّ شعوري في تلك اللّحظة مُضلّل ولم أكن قادرة على تفسير ما أنا فِيه، المرأة مَوبوءَة بالأحزان كلما نظرتَ إليها لن ترى في وجهها سوى ملامح وإيماءات تنتظر بطريقة ما أن تبتسم "ولكن من الألم يَستخدِمني" بطريقة غير لائقة وفعلتُ ما فعلتهُ بدون قصد مني وداخلي كان يدفعني للخطف..
سامي محاولًا طمأنتَها: لا تتوقفي عن الحديث مع الله أبدًا، أخبِريه عمّا يجول بخاطرك؛ وليكن صوت طلب المغفرة أعلى من صوت ما في قلبك.

ويردف قائلًا: لقد خَطفَت وجنات فتاة وباعتها
بثمن زهيد.. واعترفت بذلك قبل أن تموت.
تهزّ غادة رأسها: أخبرتني جميلة بذلك وحاولت
أن أتذكر شيئًا، كانت تتّصل بامرأة منذ سنوات
وتتحدّثُ معها من هاتفي وخزّنت رقمها هذا ما
أذكره يا سيّدي وهاتفي لديكم ابحث عنها لربما
لديها يد في هذه القضيّة.
حسنًا سأطلبكِ غدًا ونبحث معًا، أتمنّى أن
تتذكّري أي شيء من تلك المكالمات.

***

نواف وفهد ووسيم وعمر كلّ واحدٍ منهم عاد
لأسرته وبدؤوا حياتهم الجديدة محاولين التّأقلُم
مع ظروف عائلاتهم الحقيقيّة..
بدا عُمر كالغريب في أُسرته على الرغم من
محاولات والده الدائمة للتقرّب منه وكسر
الحواجز بينهم دافعًا إيّاه للتّأقلُم مع عائلته
وإخوته الجدد وبما أنّ عمر كان الأكثر تعرّضًا
للصّدمات في هذه القصّة فقد بدأ والده
يصطحبه إلى طبيبٍ نفسي ليساعده على نسيان
ما قد مرّ به من مآسٍ ومشاهد مؤلمة من خطف
وقتل وحرق وموت... كان همّ عمر الوحيد هو
كيف سيعيش في منزلٍ لا توجد فيه أمّه ولكن

وجود جدّة عمر (والدة كريمة) كما طَمأنَه والده سيُعوّضه قليلًا عن الحرمان والفقد فالعائلة لا تترك أبناءها.. وغدًا سيكبر عمر ويتزوّج ويصبح أبًا وقد تكون الظروف التي مرّ بها درسًا قاسيًا في الحياة يستفيد منه في انتقاء الأم الصالحة التي ستربّي أولاده مستقبلًا وتكون الشّريكة الحقيقية له في الحياة.

جلسَت غادة مُنفردةً في الزّنزانة وطلبت أوراقًا وقلمًا ثمّ شرعَت بكتابة رسالةٍ إلى أبنائها:

لا أعلم كم تبقّى لي في هذه الحياة... إني أرى حبل المشنقة يلتفّ حول عُنقي ليس في المنام فقط بل في اليقظة أيضًا.. أنا لا أخاف الموت... فإنّي ملاقيتهُ مهما طال بي العمر، سأموتُ بلا شك، إنّما خوفي هو كيف سألاقي ربّي؟! وكيف سيكون عذابهُ لي؟!! لقد طغيت وتجبّرت وانتصرَ شيطاني عليَّ، والآن لم أعد أراهُ، لقد اختفى بعد انتصارهِ. رسالتي هذه لابنيَّ اللّذين أنجبتُهما... ولأبنائي الّذين خطفتهم من أمهاتهم وعلى الرّغمِ من شعوري بالخِذلان منكم وغضبي وألم نفسي لنُكرانكم لما فعلتهُ من أجلكم، إلّا أنني لا أملك إلّا الدّعاء لكم بالخير كلّما رفعتُ يدي متضرّعةً إلى الله، وبعد كل صلاة أدعو الله أن يحميكم من

أنفسكم كي لا تقعوا يومًا في خطأ تدفعون
أعماركم من أجل سَداده أو تَجاوزه..
أبنائي الغوالي...
بعد وفاتي لن تَجدوا هذه الأيدي تمتدُّ بالدّعاء،
فادعوا لي بالمغفرة من الله.. فأنا أتجرّع ألم
فراقكم وعدم رؤيتكم... ليتني أستطيع قتل
نفسي.. ولكنني امتَنعتُ عن ذلك رجاء المغفرة
من الله على الرغم من معرفتي أنّ طريقي هو النار
لما اقترفته من ذنوبٍ وآثامٍ وأخطاء.
لقد فرحت الموت وجنات، لأن الله أراحها من
ويلات السّجن وبرودة الوقت الذي يمرّ فيه
ولكنني حزنت عليها لأنّ الله لم ينعم عليها
بالوقت الكافي لكي تتوب وتستغفِر كما منحَني.
أنا مُخطئةٌ ومُذنبة وأعترف بذلك، ولكنّ الله
غفور رحيم... أمّا نحن البشر فلا نغفِر ولا نعذُر
ولا نرحم. وطلبي الأخير يا أبنائي إذا عرفتم متى
سوف أُعدَم فلا تحضروا مشهد الإعدام فأنا لا
أريد أن أجرحكم أكثر بمشهد موتي.
سامحوني يا أبنائي والتمِسوا لي العذر وارحَموني
بعد موتي..
أمّكم ومحبّتكم/ غادة.

أنهَت غادة رسالتها وطلبَت من السّجّانة أن تُوصِلها للضّابط سامي كي يُرسلها لأبنائها..
بدأ الضّابط بقراءَة الرّسالة وبدا عليه التّأثّر لما احتَوتْه، فطبَعها ووزّعها على الأبناء.
بدأت غادة بإعداد العدّة للقاء وجه ربّها بالاجتِهاد والسّهر ليلًا للصّلاة وقراءة القرآن ورفع أيديها بالدّعاء ومناجاة ربها، كانت تنام سُويعات بعد الفجر وما يبقى تستغلّه بالذّكر... حتى طلبَت منها بعض السّجينات أن ترحمَ نفسها وترتاح لبعض الوقت ولكنّها أبت ذلك فالوقت المتبقّي من حياتها قصير ولا تريد أن تُمضيه بالنوم عسى الله يغفر لها أو يرحمها.
أقبلَت السجانة وفتحت باب الزنزانة: تعالي يا غادة فالضابط يريدك.
وقد شحبَ وجهها خوفًا: هل صدرَ الحكم؟!
السجانة: ليس بعد.. ولكن لديكِ زيارة..
وعندما دخلت غادة لمكتب الضّابط رأتْه يجلس ومعه رجل!
غادة: ماذا تريد يا سيّدي؟
انظري لديكِ زائر... أتى يطلبُ رؤيتك.
حدّقت بالرجل واستَشاطت غضبًا: ماذا تُريد بعد مني ؟ ألا يكفيك ما فعلته بي؟ كلّ ما أنا فيه

بسببك أنت والآن جئت لرؤيتي في السجن، هل تريد أن ترى السيف على رقبَتي؟! أم جئت شامتًا؟!... وأردفَت متهكّمة: أرجوك لا تفوّت المنظر... احضر لساحة القصاص ومتّع ناظريك برؤية ضحيّتك تموت أمامك.

أبو خالد زوجها السّابق: أرجوكِ أن تَسمَعيني... أتيت لكي تُسامحيني وتَقبلي اعتِذاري قسوت عليكِ وظلمتك، كنت أشتُمك وأضربكِ بلا رحمةٍ ولا شفقَة، أنا رجل تنقصُه الثّقة بنفسهِ، كنتِ تصغُرينني بعدد من السنوات وكنت أتخيّل بعقلي دائمًا أنّكِ تَخونينني عند ذهابي لعملي، تخيّلتُ كثيرًا أنّكِ في أحضان رجلٍ غيري، وما إن قبضَ على أختكِ حتى بدأت شكوكي تتحوّل إلى حقيقة، فتخلّصتُ منكِ على مَضَض... وهربت بابنَيّ.

غادة وهي تبكي: وأنا كنتُ الضّحيّة أمامك، لقد أنهيتَني بحرماني من ابني وابنتي، كنت أراقبك لأشهر كي أراهما يذهبان إلى المدرسة اختبأت خلف الأشجار والسيّارات والجدران لكي أسترقَ النّظر فقط، كنت أموت ألف مرّة وأنا أتمنى أن أمشّط شعر سحر أو أن أُزيّن دفاتر خالد، ويوم الجمعة والإجازات المدرسيّة هي أتعس أيامي

لأني لا اراهما، لقد تعبت ولم أجد من أشكو إليه ضعفي وقلّة حِيلتي. اذهَب واطلُب من الله أن يُسامحك فضحيّتك ليسَت أنا فقط بل أبناؤك والأبناء المختطفون، لو لم أُحرم من أبنائي لما نظرت لأولئك الأطفال.

خرج أبو خالد دون أن يَرتاح ضميره بكلمة "سامحتك" لقد دمّر حياة المرأة وكان سببًا رئيسًا في دمار عائلات الأطفال المخطوفين.

بكت غادة متأثرةً بعد زيارة طليقها، فهي لم تكن تُريد أن يراها أو تراه...

تقول للضابط: لم أكن أحُب رؤيته يا سيّدي ليتك سألتني قبل قدومي إليك.

- يجب أن تُصفّي جميع الحسابات يا غادة، عليكِ أن تغلقي ملفّاتك القديمة بالمواجهة، ماذا ينفعك إذا أختبأتِ خلف جدار الخوف؟ لقد جلبتُ هاتفك وأريد استخراج رقم المرأة التي كانت تتواصل مع وجنات أريدك أن تتّصلي بها ولا تُخبريها بأنّ وجنات توفيت اخترعي أي موضوع لكي تأتي لمنزلك وسأكون باستقبالها، فهي الخيط الوحيد الذي سيُوصلني إلى الفتاة..

أخذت غادة الهاتف وبدأت تبحث عن اسم المرأة واتصلت بها: آلوو... آلوو...

تُبادرها غادة: السّلام عليكم يا سيدتي، هل أنتِ سليمة؟

- وعليكم السلام، نعم أنا هي بماذا أخدمك؟

تُحاول استِدراجها: كنت أريد رؤيتك في منزلي غدًا إذا سمحتِ.

الخادمة: وما نوع الخدمة الّتي تُريدينها؟ هل ننظّف المنزل؟ أم نقدّم الضّيافة؟ وكم هو عدد ضيوفك؟

تبعِد السّمّاعة وتسأل سامي: ماذا أقول لها؟ إنّها خادمة وهذا عملها؟

سامي بصوتٍ خافت: اطلبي منها أن تنظّف المنزل فقط.

- أريد منكِ الحضور بعد صلاة الظّهر لتنظيف المنزل وسأشاركك الموقع.

- حسنًا.. حاضر يا سيّدة.

بدأ سامي بجمع عدد من الجنود لعمل كمين للخادمة... وغادة تقلّب في ألبوم صور الهاتف وتسترجع ذكريات أبنائها وتبتسم تارةً وتبكي تارةً أخرى وتقبل شاشة الهاتف وتمسح بيدها عليها وكأنها تحاول لمسَ أبنائها.

وهو يأخذ الهاتف من يدها: ألا يعذّبكِ هذا الشعور؟

تُطأطِئ رأسها: ربما يعذّبني ولكنني أستلذّ بعذاب أبنائي إنهم صغار لا يعلمون ما هي الأمومة سيأتي يوم ويتذكرونني ويدعون لي.. من الصّعب نسيانهم لقد ربّيتهم وهم صغار وكنت أطعمهم وأعلمهم المشي وأراقبهم بقلبِ الأم التي تجزَع لصغارها إذا تألمّوا أو حزنوا.. هل تريد مني خدمة أخرى يا سيدي؟

يودّعها: سأرسل في طلبك إذا لزم الأمر.

وصلت سليمة في موعدها إلى العنوان المُحدّد وعندما طرقَت الباب وجدتْه مفتوحًا قليلًا فدفعتْه قليلًا ودخلت خطوةً وهي تسأل: هل يوجد أحد هنا؟... مرحبًا...

خرج سامي وبعض الجنود وأحاطوا بها تفضّلي أنا من يريدك.. ادخلي لا تخافي.

تتَصبّب عرقًا: ماذا فعلت كي تَقبضوا عليَّ بهذه الطريقة؟!

أريد سؤالك فقط... اهدئي... قبل ثماني سنوات التقيتِ بسنيّة صديقتك الخادمة.. هل هي صديقتكِ فعلًا؟

تتَلعثَم وهي تجيب: كنّا نعمل معًا في المناسبات؛ وكنت آخذها معي من أجل أن تكسب لقمة عيشها ولدي أخريات أيضًا يذهبن معي.

سامي: وأين هي الآن؟
تنفي رؤيتها: لا أعلم يا سيّدي لقد هاتفتها كثيرًا ولم ترد وأنا غيّرت عنوان منزلي القديم.
سامي يُباغتها: هناك طفلة خُطفت من الحديقة وكان عمرها ثلاث سنوات ونصف السنة وقد أخبرني شاهد عيان أنّ سنيّة من اختطفتها، ثمّ غابت عن الأنظار وعادَت بدونها.
سليمة متعجّبة: وما شأني لتَسألني؟ ألقِ القبضَ على سنيّة لتعترف لكَ!
سامي بتهكّم: سنيّة هربت وكل ما توصّلت إليه يشير إلى تلك الاتصالات التي كانت بينكما من هاتف السيّدة غادة، لقد تعقّبنا تلك الاتصالات واتّضح أنّ لكِ يدٌ في الموضوع.
شعرَت أنّه لا مهرَب لها من الاعتراف: لقد دُعينا لخدمة سيّدات من المجتمع زوجات وزراء وسفراء وكنت أقود فريق الخدم وأخذت سنيّة من ضمن الفريق.. كان العمل في مخيّم شتوي في الصّحراء، وكنّا نعمل بجدّ لكي تنال خدمتنا رضا الجميع وفي لحظةٍ رأيتُ سنيّة في الخارج تحادث إحدى السّيدات، كانت تلك السّيدة زوجةَ أحد السّفراء، وعندما سألتها ماذا تريد منكِ؟

أجابت بأنّها أخذت رقم هاتفها لتذهب لمنزلها وتخدم لديها.. لم أصدقها طبعًا، فتلك المنازل لا يدخلها أي خادمة.. جعلت الأمر يستمر لحين اكتمال الحفل، وفي اليوم التّالي رأيت سنيّة في الحديقة التي داخل حيّنا وبجانبها تلك المرأة وكانت تعطيها نقودًا كثيرة.

بعد ذهاب السيّدة سألتها: لقد رأيتك مع زوجة السّفير ماذا تحيكينَ من وراء ظهري؟! فأجابت أنّهُ عمل خارجي لا دخل لي بهِ، ثمّ انصرفت، وبعدها يا سيّدي لم تجِب على اتّصالاتي فاضطررت لمُهاتفة غادة كي أطمئن عليها، وبعد شهر تقريبًا وجدتها في الحديقة ومعها ابنها يلعب.. راقبتها من بعيد ورأيتها تحمل الطّفلة بسرعة البرق فتبعتها على عجلة منّي.. حتى رأيتُ ما لم أتوقّعه، فقد أعطت الطّفلة لتلك السّيّدة بدمٍ بارد، وأخذت ما تبقى لها من النّقود من السيّدة التي أخذت الطّفلة وجرَت مسرعة لسيارتها.. لقد رأيتها بعينيّ وعندما واجهتها أنكرَت وبدأت تصرُخ بوجهي وكأنّها وحش؛ لقد تغيّر حالها عن تلك الطيبة المُتمسكِنة، فخفتُ منها وذهبت لحالي.. ومنذ ذلك اليوم لم أرها أو أتّصل بها.. أقسم لكَ يا سيدي هذا ما حصل..

لهذا السّبب كنت أهاتفها على رقم غادة ولم تكن تجيب على مكالماتي المتكرّرة.
عاد سامي إلى مكتبِه مُحتارًا في أمره، فالطفلة المخطوفة خارج البلد والخاطفة زوجة سفير، ولا يوجد دليلٌ قاطع على القضية ولا يعرف كيف سيَستعيدها أو كيف سيُثبِت للدّولة أنّ ابنة ذلك السفير هي فتاة مخطوفةٌ مِن أسرتها وليست ابنته، فبدأ برحلة البحث عن أسماء السفراء وأسماء زوجاتهم وتفاصيل حياتهم علّه يمسك أول الخيط
وعندما بدأ رحلة بحثه انطلاقًا من أول سفارة أجابه المسؤول بأنّه لا يُسمح لهم بالإفصاح لأي جهة حكوميّة عن أمورٍ خاصّة بعائلات السفراء وهذا تجاوز للقانون وتجاوز لمهمّته كمسؤول أمني، فطلب من سامي العودة أدراجه، فعاد سامي بخيبة أمل جديدة فهو بذلك لا يستطيع مساعدة أُسرة الفتاة وتخطي القوانين حتى بدأ يفكّر بالسفر والبحثِ بنفسه بدون علم الأجهزة الأمنيّة....
***
لبّى الإخوة ومعهم خالد وسحر مَسرورين دعوة والد عمر، حيث طلب منه الطبيب النفسي

ذلك لأنّه سيساعد عمر على الخروج من عزلته وزرع الفرح في قلبه بعدما تعرّض له، فهؤلاء الأولاد على الرغم من أنهم ليسوا أشقّاء إلّا أنّهم يمثّلون معنى الأخوة الحقيقية.. صحيحٌ أنه لا تجمعهم صلة أو قرابة بالدّم إلّا أنّهم تشاركوا طفولتهم وعاشوها معًا بحلوها ومرّها وما يجمعهم هو أنّهم يملكون القصّة نفسها باختلاف المعاناة، وأثناء وجودهم في منزل عمر تصلهم رسالة غادة من الضابط وبعد قراءتها تأثر الجميع بها للحظة فانتابهم شعور بالنّدم على قسوتهم معها وإطلاقهم الأحكام عليها قبل حكم القاضي، فمنهم من برّر لها ومنهم من لا يستطيع أن ينسى ما تعرّض له جرّاء فعلتها ولن يسامح، لن يلتفت الأولاد لرسالتها ولا لكلامها الذي بدا وكأنها تحاول به استِدرار عاطفتهم تجاهها لن يعودوا لأحضانها بعد كل تلك الجرائم البشعة، لقد تسبّبت غادة بجروحٍ نازفة لا تُشفى.. وكل ما يريده الأولاد هو مسح غادة من الذاكرة.

أمّا أبو عمر فقال جملةً واحدة: يا أبنائي أنتم كلّكم ضحايا وقد قدّر الله وما شاء فعل وما يجب

عليكم فعله الآن هو النّظر للأمام والتفكير في مستقبلكم وليس العودة للخلف...

جاءَ اليوم الذي تَهابهُ غادة وجميع من تأذّى في جريمة الخطف، الكل ينتظرون تنفيذ الحكم على تلك المرأة التي طغَت وتجبّرت وحرمت الأمهات من ابنائهم والأبناء من الحياة الطبيعية مع عائلاتهم.. لقد تجرّعوا آلام الخطْف سنوات... وسنوات.. لم تكن منازلهم كباقي المنازل بل كانت بركانا هائجًا..

تقول جميلة:

كلّما تذكّرتُ "أُمّي" وماذا حصل لها أبدأ بالبكاء والحزن وكيف كان الها يتعكس على بقيّة الأسرة... نعم لقد كنت أرى الحزن في وجه والدتي وهي تُعنّف من والدي، لم يكن ألمها جسديًّا فقط؛ بل خوفًا علينا نحن بنتَيها جميلة ورفيف التي تصغرني بسنوات لقد رأيت الاطمئنان والراحة والأمان في عيون والدتي وأختي بعد وفاة أبي.. حزنًّا لفترةٍ ولكننا نعِمنا بالهدوء بعدها، واستمرت حياتنا بالنجاح والتألّق، وحظيت يحب الكثير من الفتيات والنساء ليس لأدافع عن حقوقهن فقط.. بل لأنني كنت أدلّهن على طريق الخلاص ممّا

يعيقهن من أذى.. لا تنظروا للوراء فالعودة لهُ أصعب من تخطّيه.. انظروا للأمام فما هو آت أجمل بكثير ممّا فات.. إذا لم يكن الزوج سندًا لكِ فتخلّصي منهُ بالحسنى.. يجب على الإنسان أن يعتزلَ ما يُؤذيه فقلوبنا غاليةٌ علينا لا نسمح لأيٍّ كان أن يجرحها أو يكسرها..

عزيزتي غادة:

إنّ ما ينطق بهُ القاضي اليوم هو إزاحة الحجر المؤذي من طريقنا، قد تكونين كبش فداء في هذه القضيّة التي كنتِ فيها ظالمةً من وجهة نظر القانون ومظلومة من وجهة نظرك فقط وحكم القاضي عليكِ بالقصاص ما هو إلّا رسالة لمن تسوّل له نفسه سرقة شيء ليس من حقّه، لقد حاولت مرارًا وتكرارًا مساعدتك بشتّى الوسائل إلّا أنني لم أستطع ذلك، فقد تذكّرت والدة نواف ووالدة فهد ووالدة وسيم وما عانينَه على مَدى عشرين عامًا فكنت أعيش صراعًا بين ضميري كصحفيّة أدافع عن المظلومين وبين عاطفتي كأنثى لأدافع عنك، ولكنني في النهاية أيقنت أنّ القانون سيأخذ مَجراه ونحن في بلد العدل والعدالة، وعرفت أنّ داخل كل مرتكب لجريمة ضحيّة ولكنّ هذا لا يُبرّر الجريمة

نفسها، فإن برّرها فسيتحكّم الشرّ بالعالم وسيقتل الناس تحت اسم المظلوميّة، على المظلوم أن يرتقي ليسامح فإن أنصفَه القانون يسامح وينسى وإن لم يُنصِفه فليسامح ويتذكر. إنّ كلَّ ما استطعت فعله هو تحويل قضيّتك إلى قضيّة رأيٍ عام، لا يوجد حديث اليوم على وسائل التواصل الاجتماعي إلا قضيّتك، وهي بين مؤيّدٍ ومعارض، بين مبّررٍ لتصرّفاتك في دفاعكِ عن حقّك في الأمومة وبين مؤيّدين لعقابك كخاطفة، لا تحزني يا عزيزتي، إنّ الله يخلقنا على هذه الأرض لأداء رسالةٍ معيّنة، كلّ منّا حسب علمه وقناعته واختصاصه، ربّما جعل الله منك قضيّةً يتّعظ بها البشر، تتّعظ بها الأمهات للحفاظ أكثر على أولادهن ويتّعظ بها الرجال لحماية زوجاتهم ورعايتهن والرفق بهن ويتّعظ بها الأولاد لبرّ الوالدين، مهما كانت النتيجة ومهما كان الحكم، سيبقى المجرم مُجرمًا في أعين الناس حتّى يراه الناس معلّقًا على حبل المشنقَة عندها سيصبح في أعينهم ضحيّة. سأقول حكمي لك: أنتِ أمٌّ عظيمة، بل أيقونةٌ للأمومة، استقبلي قدرك بابتسامة فقد أدّيتِ رسالتكِ على أكمل وجه.

دخلت غادة ساحة المحاكمة وبدأت تجرّ خُطاها بتَثاقل ولا ترى أمامها وقد غُطّي رأسها بقماش أسود.. يخترقه قليل من الضوء؛ اقترب منها طليقها أبو خالد يرجوها أن تسامحهُ.. ولكنّها بكلّ كرهها وهي تكاد لا تلتقط أنفاسها من الخوف: أنا هنا أعاقب بسببك وسأرتاح بعد دقائق وسأترك لكَ عذاب الضّمير، ما تبقى من عُمرك، ستَنهَش الحسرةُ قلبك كلّما رأيت ابنيّ أمامك؛ ستتذكر أنّك حرمتهما من والدتهما وجعلتها بصمةَ عارٍ من ظُلمك.. "لا سامحك الله."

ترى غادة من خلال الثّقوب جميلة تقف بجانب الضابط سامي كما شاهدت ابنتها سحر وهي تبكي وتتألّم بينما يحاول أخوها خالد إسنادها وتهدئتها، وأولادها نواف وفهد ووسيم حتى عمر وكلٌّ منهم يحضر المحاكمة مع عائلته الجديدة، فأخذت ترمُقهم بحزن وتبتلِع ريقَها الجاف بحسرةٍ ولوعة، وتتذكّر أيامها الجميلة معهم، ويمرّ شريط ذكريات طفولتهم بين يديها صرخت غادة بصوتها المُختنِق: لماذا جئتم؟! لم أكن أريدكم أن تشاهدوا هذا المنظر ورأس والدتكم

سيَتدحرَج منفصلًا عن جسدها الذي أنهكتُه أعباء الحياة ونهش قلبها ألمُ فراقكم.

انقسمت المحكمة بين فرح وحزن.. أشخاصٌ يهتفون بالتّحسّب وعبارات الظلم وأشخاص حزينون لمعرفتهم أن ما فعلتهُ خاطفة الأبناء مجرد تَراكُمات من الأحزان والظلم والقهر.. هي ضحية لمجتمع تسلّط وتجبّر عليها منذ الصّغر. أمّا أبناؤها فيتابعون خطواتها بحُزن وما آلت إليه حالها من الكبَر والتّعب والإعياء.

إنّ تدخّل الصحفية جميلة في هذه القضيّة وتحوّلها إلى قضيّة رأي عام أثار حفيظة الآلاف من المُحامين والمُثقفين والمناصرينَ للمرأة إضافةً إلى أنّ أهالي المخطوفين: نواف - فهد - ووسيم ورأفةً بحالِ أولادهم وبحال الجانية وتعاطفًا مع ما قدّمته لهم من رعايةٍ طوال عشرين عامًا مضت قد أسقطوا حقّهم بالادّعاء عليها.

وصلَ القاضي وبدأ بالنّطق بالحكم:
وتتركُ لك عزيزي القارئ أن تكتبَ رأي القاضي
بعد أن قرأت قصّة غادة...